

الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «إياكم والشح، فإنه أهلك من كان قبلكم أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالظلم فظلموا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا»^(١)، وكان عبد الرحمن بن عوف يكثر من الدعاء في طوافه يقول: اللهم قني شح نفسي، فقال له رجل: ما أكثر ما تدعو بهذا. فقال: إذا وقيت شح نفسي وقيت الشح والظلم والقطيعة. والحسد يوجب الظلم.

فصل

فالبخل والحسد مرض يوجب بغض النفس لما ينفعها، بل وجبها لما يضرها؛ ولهذا يقرن الحسد بالحقد والغضب، وأما مرض الشهوة، والعشق فهو حب النفس لما يضرها، وقد يقترن به بغضها لما ينفعها، والعشق مرض نفساني، وإذا قوى أثر في البدن فصار مرضاً في الجسم، إما من أمراض / الدماغ كالماليخوليا؛ ولهذا قيل فيه: هو مرض وسواسي شبيه بالماليخوليا، وأما من أمراض البدن كالضعف والنحول ونحو ذلك.

والمقصود هنا مرض القلب؛ فإنه أصل محبة النفس لما يضرها كالمريض البدن الذي يشتهي ما يضره. وإذا لم يطعم ذلك تألم، وإن أطعم ذلك قوى به المرض وزاد.

كذلك العاشق يضره اتصاله بالمعشوق مشاهدة وملامسة وسماعاً، بل ويضره التفكير فيه والتخيل له وهو يشتهي ذلك، فإن منع من مشتهاه تألم وتعذب، وإن أعطى مشتهاه قوي مرضه، وكان سبباً لزيادة الألم.

وفي الحديث: «إن الله يحمي عبده المؤمن الدنيا كما يحمي أحدكم مريضه الطعام والشراب»^(٢)، وفي مناجاة موسى الماثورة عن وهب التي رواها الإمام أحمد في كتاب «الزهد» يقول الله تعالى: «إني لأذود أوليائي عن نعيم الدنيا ورخائها، كما يذود الراعي الشفيق إبله عن مراتع الهلكة، وإني لأجنبهم سكونها وعيشها كما يجنب الراعي الشفيق إبله عن مبارك الغرة، وما ذلك لهوانهم علي، ولكن ليستكملوا نصيبهم من كرامتي مالمأ موفراً لم تكلمه الدنيا ولم يطفئه الهوى»^(٣). وإنما شفاء المريض بزوال مرضه، بل بزوال ذلك الحب المذموم من قلبه.

(١) أبو داود في الزكاة (١٦٩٨)، والنسائي في تفسيره (٦٠٣)، وأحمد ١٥٩/٢، ١٦٠، ١٩١، ١٩٥.

(٢) أحمد ٤٢٨/٥، والترمذي في الطب بمعناه (٢٠٣٦)، وقال: «حسن غريب».

(٣) أحمد في الزهد ص ١٠٢ (٣٤١).

والناس في العشق على قولين :

١٠/١٣١

/ قيل : إنه من باب الإرادات ، وهذا هو المشهور .

وقيل : من باب التصورات ، وإنه فساد في التخيل ، حيث يتصور المعشوق على ما هو به ، قال هؤلاء : ولهذا لا يوصف الله بالعشق ، ولا أنه يعشق ؛ لأنه منزّه عن ذلك ، ولا يحمد من يتخيل فيه خيلاً فاسداً .

وأما الأولون فمنهم من قال : يوصف بالعشق فإنه المحبة التامة ، والله يحب ويحب ، وروى في أثر عن عبد الواحد بن زيد أنه قال : لا يزال عبدي يتقرب إليّ يعشقني وأعشقه . وهذا قول بعض الصوفية .

والجمهور لا يطلقون هذا اللفظ في حق الله ؛ لأن العشق هو المحبة المفرطة الزائدة على الحد الذي ينبغي ، والله - تعالى - محبته لا نهاية لها ، فليست تنتهي إلى حد لا تنبغي مجاوزته .

قال هؤلاء : والعشق مذموم مطلقاً لا يمدح لا في محبة الخالق ، ولا المخلوق ؛ لأنه المحبة المفرطة الزائدة على الحد المحمود ، وأيضاً فإن لفظ العشق إنما يستعمل في العرف في محبة الإنسان لامرأة أو صبي ، لا يستعمل في محبة كمحبة الأهل والمال والوطن والجاه ، ومحبة الأنبياء والصالحين ، وهو مقرون كثيراً بالفعل المحرم : إما بمحبة امرأة أجنبية أو صبي ، يقترن به النظر المحرم ، واللمس المحرم ، وغير ذلك من الأفعال المحرمة .

١٠/١٣٢

/ وأما محبة الرجل لامرأته أو سريته محبة تخرجه عن العدل بحيث يفعل لأجلها ما لا يحل ، ويترك ما يجب ، كما هو الواقع كثيراً ، حتى يظلم ابنه من امرأته العتيقة ، لمحبه الجديدة ، وحتى يفعل من مطالبها المذمومة ما يضره في دينه ودنياه ، مثل أن يخصصها بميراث لا تستحقه ، أو يعطي أهلها من الولاية والمال ما يتعدى به حدود الله ، أو يسرف في الإنفاق عليها ، أو يملكها من أمور محرمة تضره في دينه ودنياه ، وهذا في عشق من يباح له وطؤها .

فكيف عشق الأجنبية والذُكران من العالمين؟ ففيه من الفساد ما لا يحصيه إلا رب العباد ، وهو من الأمراض التي تفسد دين صاحبها وعرضه ، ثم قد تفسد عقله ثم جسمه ، قال تعالى : ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢] .

ومن في قلبه مرض الشهوة ، وإرادة الصورة متى خضع المطلوب طمع المريض ، والطمع الذي يقوى الإرادة والطلب ، ويقوى المرض بذلك ، بخلاف ما إذا كان آيساً من

المطلوب، فإن اليأس يزيل الطمع فتضعف الإرادة فيضعف الحب، فإن الإنسان لا يريد أن يطلب ما هو آيس منه، فلا يكون مع الإرادة عمل أصلاً، بل يكون حديث نفس إلا أن يقترن بذلك كلام أو نظر، ونحو ذلك فيأثم بذلك.

١٠ / ١٣٣ / فأما إذا ابتلى بالعشق وعف وصبر، فإنه يثاب على تقواه لله، وقد روى في الحديث: «أن من عشق فعف وكنم وصبر ثم مات كان شهيداً» وهو معروف من رواية يحيى القتات عن مجاهد عن ابن عباس مرفوعاً، وفيه نظر ولا يحتاج بهذا^(١).

لكن من المعلوم بأدلة الشرع أنه إذا عف عن المحرمات نظراً وقولاً وعملاً، وكنم ذلك فلم يتكلم به حتى لا يكون في ذلك كلام محرم، إما شكوى إلى المخلوق وإما إظهار فاحشة، وإما نوع طلب للمعشوق، وصبر على طاعة الله، وعن معصيته، وعلى ما في قلبه من ألم العشق، كما يصبر المصاب عن ألم المصيبة، فإن هذا يكون ممن اتقى الله وصبر، «إِنَّهُ مَنْ (٢) يَتَّقْ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ» [يوسف: ٩٠].

وهكذا مرض الحسد وغيره من أمراض النفوس، وإذا كانت النفس تطلب ما يبغضه الله فينهاها خشية من الله كان ممن دخل في قوله: «وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ . فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ» [النازعات: ٤٠، ٤١].

فالنفس إذا أحببت شيئاً سعت في حصوله بما يمكن، حتى تسعى في أمور كثيرة تكون كلها مقامات لتلك الغاية، فمن أحب محبة مذمومة أو أبغض بغضاً مذموماً وفعل ذلك كان آثماً، مثل أن يبغض شخصاً لحسده له فيؤذي من له به تعلق، إما بمنع حقوقهم، أو بعدوان عليهم. أو لمحبة له / لهواه معه فيفعل لأجله ما هو محرم، أو ما هو مأمور به لله فيفعله لأجل هواه لا لله، وهذه أمراض كثيرة في النفوس، والإنسان قد يبغض شيئاً فيبغض لأجله أموراً كثيرة بمجرد الوهم والخيال.

وكذلك يحب شيئاً فيحب لأجله أموراً كثيرة، لأجل الوهم والخيال، كما قال شاعرهم:

أحب لحبها السودان حتى أحب لحبها سود الكلاب

فقد أحب سوداء، فأحب جنس السواد، حتى في الكلاب، وهذا كله مرض في القلب في تصويره وإرادته.

(١) قال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء ١١٣/٣: «أخرجه الحاكم في التاريخ من حديث ابن عباس وقال: أنكر على سويد بن سعيد، ثم قال لما ذكر له هذا الحديث قال: لو كان لي قوس ورمح غزوت سويداً، ورواه الخرائطي من غير طريق سويد بسند فيه نظر».

(٢) في المطبوعة: «ومن»، والصواب ما أثبتناه.

فنسأل الله - تعالى - أن يعافى قلوبنا من كل داء، ونعوذ بالله من منكرات الأخلاق والأهواء والأدواء.

والقلب إنما خلق لأجل حب الله - تعالى - وهذه الفطرة التي فطر الله عليها عباده كما قال النبي ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء» ثم يقول أبو هريرة - رضي الله عنه - أفرؤوا إن شئتم: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]، أخرجه البخاري ومسلم^(١).

١٠/١٣٥ /فاللّٰه - سبحانه - فطر عباده على محبته وعبادته وحده، فإذا تركت الفطرة بلا فساد كان القلب عارفاً باللّٰه محباً له عابداً له وحده، لكن تفسد فطرته من مرضه كأبويه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، وهذه كلها تغير فطرته التي فطره عليها، وإن كانت بقضاء الله وقدره - كما يغير البدن بالجدع - ثم قد يعود إلى الفطرة إذا يسر الله - تعالى - لها من يسعى في إعادتها إلى الفطرة.

والرسل - صلى الله عليهم وسلم - بعثوا لتقرير الفطرة وتكملها لا لتغيير الفطرة وتحويلها، وإذا كان القلب محباً لله وحده مخلصاً له الدين، لم يبتل بحب غيره أصلاً، فضلاً أن يبتلى بالعشق، وحيث ابتلى بالعشق فلنقص محبته لله وحده.

ولهذا لما كان يوسف محباً لله مخلصاً له الدين لم يبتل بذلك، بل قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]. وأما امرأة العزيز فكانت مشركة هي وقومها؛ فلهذا ابتليت بالعشق، وما يبتلى بالعشق أحد إلا لنقص توحيده وإيمانه، وإلا فالقلب المنيب إلى الله الخائف منه فيه صارفان يصرفانه عن العشق:

أحدهما: إنايته إلى الله؛ ومحبته له، فإن ذلك ألد وأطيب من كل شيء، فلا تبقى مع محبة الله محبة مخلوق تزاحمه.

١٠/١٣٦ /والثاني: خوفه من الله، فإن الخوف المضاد للعشق يصرفه، وكل من أحب شيئاً بعشق أو غير عشق فإنه يصرف عن محبته بمحبة ما هو أحب إليه منه، إذا كان يزاحمه، وينصرف عن محبته بخوف حصول ضرر يكون أبغض إليه من ترك ذاك الحب، فإذا كان الله أحب إلى العبد من كل شيء، وأخوف عنده من كل شيء، لم يحصل معه عشق ولا مزاحمة إلا عند غفلة أو عند ضعف هذا الحب والخوف، بترك بعض الواجبات وفعل

(١) البخاري في الجائز (١٣٥٨) ومسلم في القدر (٢٢/٢٦٥٨).

بعض المحرمات، فإن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، فكلما فعل العبد الطاعة محبة لله وخوفاً منه وترك المعصية حباً له وخوفاً منه قوى حبه له وخوفه منه، فيزيل ما في القلب من محبة غيره ومخافة غيره.

وهكذا أمراض الأبدان: فإن الصحة تحفظ بالمثل، والمرض يدفع بالضد، فصحة القلب بالإيمان تحفظ بالمثل، وهو ما يورث القلب إيماناً من العلم النافع والعمل الصالح، فتلك أغذية له، كما في حديث ابن مسعود مرفوعاً وموقوفاً: «إن كل آدب يحب أن تؤتى مآدبته، وإن مأدبة الله هي القرآن»^(١). والآدب: المضيف فهو ضيافة الله لعباده...^(٢).

مثل آخر: الليل وأوقات الأذان والإقامة وفي سجوده، وفي أدبار الصلوات، ويضم إلى ذلك الاستغفار، فإنه من استغفر الله ثم تاب إليه متعاً متاعاً حسناً إلى أجل مسمى.

وليتخذ ورداً من الأذكار في النهار، ووقت النوم، وليصبر على ما يعرض له من الموانع والصوارف، فإنه لا يلبث أن يؤيده الله بروح منه. ويكتب الإيمان في قلبه.

وليجرص على إكمال الفرائض من الصلوات الخمس باطنة وظاهرة فإنها عمود الدين، وليكن هجيره لا حول ولا قوة إلا بالله، فإنها بها تحمل الأثقال، وتكابد الأهوال، وينال رفيع الأحوال.

ولا يسأم من الدعاء والطلب، فإن العبد يستجاب له ما لم يعجل، فيقول: قد دعوت ودعوت فلم يستجب لي، وليعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً، ولم ينل أحد شيئاً من ختم الخير نبي فمن دونه إلا بالصبر.

والحمد لله رب العالمين، وله الحمد والمنة على الإسلام والسنة، حمداً يكافئ نعمه الظاهرة والباطنة، وكما ينبغي لكرم وجهه وعز جلاله.

وصلّى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه، وأزواجه أمهات المؤمنين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، وسلم تسليماً كثيراً.

(١) الدارمي في فضائل القرآن ٤٣٣/٢.

(٢) بياض بالأصل.

/ وَقَالَ شَيْخُ الْإِسْلَام - رَحِمَهُ اللَّهُ - أَيْضًا:

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على نبينا محمد وصحبه وسلم .

فصل

في مرض القلوب وشفائها

قد ذكرنا في غير موضع: أن صلاح حال الإنسان في العدل، كما أن فساده في الظلم. وأن الله - سبحانه - عدله وسواه لما خلقه، وصحة جسمه وعافيته من اعتدال أخلاطه وأعضائه ومرض ذلك الانحراف والميل.

وكذلك استقامة القلب، واعتداله، واقتصاده، وصحته، وعافيته، وصلاحه متلازمة.

١٠ / ١٣٩ / وقد ذكر الله مرض القلوب وشفائها في مواضع من كتابه وجاء ذلك في سنة رسوله ﷺ ، كقوله - تعالى - عن المنافقين: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠]، وقال: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ﴾ [المائدة: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَيُشَفِّ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ . وَيَذْهَبُ غِظٌ قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ١٤، ١٥]، وقال: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾ [يونس: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ [فصلت: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢]، وقال: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦٠]، وقال: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢].

وقال النبي ﷺ : «هلا سألوا إذ لم يعلموا، فإنما شفاء العي» (٢) السؤال (٣)، وقال الرشيد: الآن شفيتني يا مالك، وفي صحيح البخاري عن ابن مسعود: أن أحداً لا يزال بخير ما اتقى الله، وإذا شك في تفسير شيء سأل رجلاً فشفاه، وأوشك ألا يجده والذي لا إله إلا هو (٤).

(١) في المطبوعة: «ولا»، والصواب ما أثبتناه.

(٢) تقدم معناها.

(٣) سبق تخريجه ص ٥٩.

(٤) البخاري في الجهاد (٢٩٦٤)، عن عبد الله بن مسعود.

وما ذكر الله من مرض القلوب وشفائها بمنزلة ما ذكر من موتها / وحياتها وسمعتها وبصرها وعقلها وصممها وبكمها وعمها.

لكن المقصود معرفة مرض القلب فنقول: المرض نوعان:

فساد الحس.

وفساد الحركة الطبيعية وما يتصل بها من الإرادية.

وكل منهما يحصل بفقد ألم وعذاب، فكما أنه مع صحة الحس والحركة الإرادية والطبيعية تحصل اللذة والنعمة، فكذلك بفسادها يحصل الألم والعذاب؛ ولهذا كانت النعمة من النعيم، وهو ما ينعم الله به على عباده، مما يكون فيه لذة ونعيم، وقال: ﴿لَتَسْأَلَنَ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨]، أي: عن شكره.

فسبب اللذة إحساس الملائم، وسبب الألم إحساس المنافي، ليس اللذة والألم نفس الإحساس والإدراك، وإنما هو نتيجة وثمرته ومقصوده وغايته، فالمرض فيه ألم لا بد منه وإن كان قد يسكن أحياناً لمعارض راجح، فالملتضى له قائم يهيج بأدنى سبب، فلا بد في المرض من وجود سبب الألم، وإنما يزول الألم بوجود المعارض الراجح.

ولذة القلب وألمه أعظم من لذة الجسم وألمه، أعني ألمه ولذته النفسانيان، / وإن كان قد يحصل فيه من الألم من جنس ما يحصل في سائر البدن بسبب مرض الجسم، فذلك شيء آخر.

فلذلك كان مرض القلب وشفائه، أعظم من مرض الجسم وشفائه، فتارة يكون من جملة الشبهات. كما قال: ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾، وكما صنف الخراطمي كتاب «اعتلال القلوب بالأهواء» ففي قلوب المنافقين: المرض من هذا الوجه، ومن هذا الوجه: من جهة فساد الاعتقادات، وفساد الإرادات.

والمظلوم في قلبه مرض وهو الألم الحاصل بسبب ظلم الغير له، فإذا استوفى حقه اشتفى قلبه. كما قال تعالى: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ . وَيَذْهَبُ غِيظُ قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ١٤]، [١٥]، فإن غيظ القلب إنما هو لدفع الأذى والألم عنه، فإذا اندفع عنه الأذى واستوفى حقه زال غيظه.

فكما أن للإنسان إذا صار لا يسمع بأذنه ولا يبصر بعينه ولا ينطق بلسانه كان ذلك مرضاً مؤلماً له يفوته من المصالح ويحصل له من المضار، فكذلك إذا لم يسمع ولم يبصر ولم يعلم بقلبه الحق من الباطل، ولم يميز بين الخير والشر، والغني والرشاد، كان ذلك

من أعظم أمراض قلبه وألمه، وكما أنه إذا انتهى ما يضره مثل الطعام الكثير في الشهوة الكلية، ومثل أكل الطين ونحوه كان ذلك مرضاً، فإنه يتألم حتى يزول ألمه/ بهذا الأكل الذي يوجد أماً أكثر من الأول، فهو يتألم إن أكل، ويتألم إن لم يأكل.

فكذلك إذا بلي بحب من لا ينفعه العشق، ونحوه سواء كان لصورة أو لرئاسة أو لمال ونحو ذلك، فإن لم يحصل محبوبه ومطلوبه فهو متألم ومريض سقيم، وإن حصل محبوبه فهو أشد مرضاً وألماً وسقماً، ولذلك كما أن المريض إذا كان يبغض ما يحتاج إليه من الطعام والشراب، كان ذلك الألم حاصلاً، وكان دوامه على ذلك يوجب من الألم أكثر من ذلك حتى يقتله، حتى يزول ما يوجب بغضه لما ينفعه ويحتاج إليه، فهو متألم في الحال، وتألم فيما بعد - إن لم يعافه الله - أعظم وأكبر.

فبغض الحاسد لنعمة الله على المحسود، كبغض المريض لأكل الأصحاء لأطعمتهم وأشربتهم، حتى لا يقدر أن يراهم يأكلون، ونفرته عن أن يقوم بحقه كنفرة المريض عما يصلح له من طعام وشراب، فالحب والبغض الخارج عن الاعتدال والصحة في النفس كالشهوة والنفرة الخارج عن الاعتدال والصحة في الجسم، وعمى القلب وبكمه أن يبصر الحقائق ويميز ما ينفعه ويضره، كعمى الجسم، وخرسه عن أن يبصر الأمور المرتبة، ويتكلم بها ويميز بين ما ينفعه ويضره.

وكما أن الضرير إذا أبصر وجد أن الراحة والعافية والسرور أمراً / عظيماً. فبصر ١٠/١٤٣ القلب ورؤيته الحقائق بينه وبين بصر الرأس من التفاوت ما لا يحصىه إلا الله، وإنما الغرض هنا تشبيه أحد المرضين بالآخر، فطب الأديان يحتذى حذو طب الأبدان.

وقد كتب سليمان إلى أبي الدرداء: أما بعد : فقد بلغني أنك قعدت طبيباً، فأياك أن تقتل، والله أنزل كتابه شفاء لما في الصدور. وقال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]، ذلك أن الشفاء إنما يحصل لمن يعتمد الدواء، وهم المؤمنون وضعوا دواء القرآن على داء قلوبهم.

فمرض الجسم يكون بخروج الشهوة، والنفرة الطبيعية عن الاعتدال، أما شهوة ما لا يحصل أو يفقد الشهوة النافعة وينفر به عما يصلح ويفقد النفرة عما يضر، ويكون بضعف قوة الإدراك والحركة، كذلك مرض القلب يكون بالحُب والبغض الخارجين عن الاعتدال، وهي الأهواء التي قال الله فيها: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بَغْيَرٌ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠]، وقال: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الروم: ٢٩].

(١) في المطبوعة: «ومن أظلم»، والصواب ما أثبتناه.

كما يكون الجسد خارجاً عن الاعتدال إذا فعل ما يشتهي الجسم بلا قول الطبيب، ويكون لضعف إدراك القلب وقوته حتى لا يستطيع أن يعلم ويريد ما ينفعه ويصلح له، وكما أن المرضى الجهال قد يتناولون ما يشتهون، فلا / يحتمون ولا يصبرون على الأدوية الكريهة لما في ذلك من تعجيل نوع من الراحة واللذة، ولكن ذلك يعقبهم من الآلام ما يعظم قدره، أو يعجل الهلاك.

١٠/١٤٤

فكذلك بنو آدم هم جهال ظلموا أنفسهم، يستعجل أحدهم ما ترغبه لذته ويترك ما تكرهه نفسه، مما هو لا يصلح له، فيعقبهم ذلك من الألم والعقوبات، إما في الدنيا وإما في الآخرة ما فيه عظم العذاب والهلاك الأعظم.

والتقوى: هي الاحتماء عما يضره بفعل ما ينفعه، فإن الاحتماء عن الضار يستلزم استعمال النافع، وأما استعمال النافع فقد يكون معه أيضاً استعمالاً لضرار، فلا يكون صاحبه من المتقين.

وأما ترك استعمال الضار والنافع فهذا لا يكون؛ فإن العبد إذا عجز عن تناول الغذاء كان مغتدياً بما معه من المواد التي تضره حتى يهلك؛ ولهذا كانت العاقبة للتقوى، وللمتقين؛ لأنهم المحتمون عما يضرهم فعاقبتهم الإسلام والكرامة، وإن وجدوا ألماً في الابتداء لتناول الدواء والاحتماء، كفعل الأعمال الصالحة المكروهة. كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦].

ولكثرة الأعمال الباطلة المشتهاة، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ . فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١]. وكما قال: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧]، فأما من لم يحتم فإن ذلك سبب لضرره في العاقبة، ومن تناول ما ينفعه مع يسير من التخليط، فهو أصلح ممن احتتمى حمية كاملة ولم يتناول الأشياء سراً، فإن الحمية التامة بلا اغتذاء تمرض، فهكذا من ترك السيئات ولم يفعل الحسنات.

١٠/١٤٥

وقد قدمنا في قاعدة كبيرة أن جنس الحسنات أنفع من جنس ترك السيئات، كما أن جنس الاغتذاء من جنس الاحتماء، وبيننا أن هذا مقصود لنفسه وذلك مقصود لغيره بالانضمام إلى غيره، وكما أن الواجب الاحتماء عن سبب المرض قبل حصوله، وإزالته بعد حصوله، فهكذا أمراض القلب يحتاج فيها إلى حفظ الصحة ابتداء وإلى إعادتها - بأن عرض له المرض - دوماً، والصحة تحفظ بالمثل، والمرض يزول بالضد، فصحة القلب

تحفظ باستعمال أمثال ما فيها، أو هو ما يقوي العلم والإيمان من الذكر والتفكير والعبادات المشروعة، وتزول بالضد، فتزال الشبهات بالبينات، وتزال محبة الباطل ببغضه ومحبة الحق.

ولهذا قال يحيى بن عمار^(١) : العلوم خمسة: فعلم هو حياة الدنيا ، وهو علم التوحيد ، وعلم هو غذاء الدين ، وهو علم التذكر بمعاني القرآن والحديث ، وعلم هو دواء الدين ، وهو علم الفتوى إذا نزل بالعبد نازلة احتاج إلى من / يشفيه منها ، كما قال ١٠/١٤٦ ابن مسعود: وعلم هو داء الدين وهو الكلام المحدث ، وعلم هو هلاك الدين ، وهو علم السحر ونحوه.

فحفظ الصحة بالمثل، وإزالة المرض بالضد، في مرض الجسم الطبيعي، ومرض القلب النفساني الديني الشرعي . قال النبي ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء » ثم يقول أبو هريرة : اقرؤوا إن شئتم : ﴿ فَطَرَهُ اللَّهُ الَّذِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم: ٣٠] ، أخرجاه في الصحيحين^(٢) . قال الله تعالى : ﴿ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَه قَائِتُونَ . وَهُوَ الَّذِي بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ إلى قوله : ﴿ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٢٦-٣٠].

فأخبر أنه فطر عباده على إقامة الوجه حنيفاً، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، فهذه من الحركة الفطرية الطبيعية المستقيمة المعتدلة للقلب، وتركها ظلم عظيم اتبع أهله أهواءهم بغير علم، ولا بد لهذه الفطرة والخلقة - وهي صحة الخلقة - من قوت وغذاء بمدّها بنظير ما فيها مما فطرت عليه علماً وعملاً ؛ ولهذا كان تمام الدين بالفطرة المكملّة بالشرعة المنزلة ، وهي مأدبة الله كما قال النبي ﷺ في حديث ابن مسعود : « إن كل آدب يحب أن / تؤتي مأدبته ، وإن مأدبة الله هي القرآن »^(٣) ، ومثله كماء أنزله الله من السماء ، كما ١٠/١٤٧ جرى تمثيله بذلك في الكتاب والسنة . والمحرفون للفطرة المغيرون للقلب عن استقامته، هم ممرضون القلوب مسقمون لها، وقد أنزل الله كتابه شفاء لما في الصدور .

(١) هو أبو زكريا يحيى بن عمار الشيباني، نزيل هراة، إمام ومحدث وواعظ، شيخ سجستان، كان بارعاً في التفسير والسنة، مات وله تسعون سنة . [سير أعلام النبلاء ١٧/٤٨١، وشذرات الذهب ٣/٢٢٦].
(٢) سبق تخريجهما ص ٨٣، ٨٤.

وما يصيب المؤمن في الدنيا من المصائب هي بمنزلة ما تصيب الجسم من الألم، يصح بها الجسم وتنزل أخلاطه الفاسدة. كما قال النبي ﷺ: «ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا هم ولا حزن ولا غم ولا أذى، حتى الشوكة يشاكها، إلا كفر الله بها خطاياها»^(١)، وذلك تحقيق لقوله: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سَوْأً يَجْزِ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣].

ومن لم يظهر في هذه الدنيا من هذه الأمراض فيؤب صحيحاً، وإلا احتاج أن يظهر منها في الآخرة فيعذبه الله. كالذي اجتمعت فيه أخلاطه، ولم يستعمل الأدوية لتخفيفها عنه فتجتمع حتى يكون هلاكه بها؛ ولهذا جاء في الأثر: «إذا قالوا للمريض: اللهم ارحمه، يقول الله: كيف أرحمه من شيء به أرحمه؟!»، وقال النبي ﷺ: «المرض حطة، يحط الخطايا عن صاحبه كما تحط الشجرة اليابسة ورقها»^(٢).

وكما أن أمراض الجسم ما إذا مات الإنسان منه كان شهيداً. كالمطعون والمبطون وصاحب ذات الجنب، وكذلك الميت بغرق، أو حرق، أو هدم، فمن / أمراض النفس، ما إذا اتقى العبد ربه فيه وصبر عليه حتى مات كان شهيداً، كالجبان الذي يتقى الله ويصبر للقتال حتى يقتل، فإن البخل والجبن من أمراض النفوس إن أطاعه أوجب له الألم، وإن عصاه تألم كأضرار الجسم.

١٠/١٤٨

وكذلك العشق، فقد روى: «من عشق فعف وكتم وصبر، ثم مات مات شهيداً»^(٣) فإنه مرض في النفس، يدعو إلى ما يضر النفس، كما يدعو المريض إلى تناول ما يضر. فإن أطاع هواه عظم عذابه في الآخرة وفي الدنيا أيضاً، وإن عصى الهوى بالعفة والكتمان صار في نفسه من الألم والسقم ما فيها، فإذا مات من ذلك المرض كان شهيداً، هذا يدعو إلى النار فيمنعه كالجبان تمنعه نفسه عن الجنة فيقدمها.

فهذه الأمراض إذا كان معها إيمان وتقوى كانت كما قال النبي ﷺ: «لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له إن أصابته سراء فشكر، كان خيراً له، وإن أصابته ضراء فصبر كان خيراً له»^(٤).

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، وسلم تسليماً.

(١) البخاري في المرضى (٥٦٤١، ٥٦٤٢) ومسلم في البر والصلة (٢٥٧٢/٥٠-٥٢).

(٢) البخاري في المرضى (٥٦٦٠) ومسلم في البر والصلة (٢٥٧١/٤٥).

(٣) سبق تخريجه ص ٨٢.

(٤) مسلم في الزهد والرفائق (٦٤/٢٩٩٩) وأحمد ٥/٢٤ والدارمي في الرقاق ٣١٨/٢.

١٠ / ١٤٩ / سئل الشيخ - رحمه الله - عن قوله عز وجل : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١] ، فما العبادة وفروعها؟ وهل مجموع الدين داخل فيها أم لا؟ وما حقيقة العبودية؟ وهل هي أعلى المقامات في الدنيا والآخرة أم فوقها شيء من المقامات؟ وليسطوا لنا القول في ذلك.

فأجاب :

الحمد لله رب العالمين، العبادة: هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة ، كالصلاة والزكاة ، والصيام ، والحج ، وصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وبر الوالدين ، وصلة الأرحام ، والوفاء بالعهود ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر، والجهد للكفار والمنافقين، والإحسان إلى الجار واليتيم ، والمسكين وابن السبيل، والمملوك من الآدميين والبهائم، والدعاء والذكر والقراءة، وأمثال ذلك من العبادة .

وكذلك حب الله ورسوله ، وخشية الله والإنابة إليه ، وإخلاص الدين له ، والصبر لحكمه ، والشكر لنعمه ، والرضا بقضائه ، والتوكل عليه ، / والرجاء لرحمته ، والخوف لعذابه ، وأمثال ذلك هي من العبادة لله .

وذلك أن العبادة لله هي الغاية المحبوبة له والمرضية له ، التي خلق الخلق لها ، كما قال تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِعِبَادُونَ﴾ [الذاريات: ٥٦] ، وبها أرسل جميع الرسل ، كما قال نوح لقومه : ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [المؤمنون: ٢٣] ، وكذلك قال هود وصالح وشعيب وغيرهم لقومهم .

وقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ [النحل: ٣٦] ، وقال تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] ، وقال تعالى : ﴿إِنْ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢] ، كما قال في الآية الأخرى : ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١] . وجعل ذلك لازماً لرسوله إلى الموت كما قال : ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩] .

وبذلك وصف ملائكته وأنبياءه ، فقال تعالى : ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ . يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾

(١) في المطبوعة : « وإن » ، والصواب ما أثبتناه .

[الأنبياء: ١٩، ٢٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦]، وضم المستكبرين عنها بقوله: ﴿وَقَالَ / رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

١٠/١٥١

ونعت صفة خلقه بالعبودية له، فقال تعالى: ﴿عَيْنَا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان: ٦]، وقال: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الآيات: الفرقان: ٦٣]، ولما قال الشيطان: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٣٩، ٤٠]، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢].

وقال في وصف الملائكة بذلك: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ . لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا . لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا . تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا . أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا . وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا . إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا . لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا . وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٨٨ - ٩٥].

وقال تعالى عن المسيح - الذي ادعيت فيه الألوهية والنبوة: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الزخرف: ٥٩]؛ ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى / ابن مريم، فإنما أنا عبد فقولوا: عبد الله ورسوله»^(١).

١٠/١٥٢

وقد نعته الله بالعبودية في أكمل أحواله فقال في الإسراء: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١]، وقال في الإحياء: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠]، وقال في الدعوة: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: ١٩]، وقال في التحدي: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣]، فالدين كله داخل في العبادة.

وقد ثبت في الصحيح: أن جبريل لما جاء إلى النبي ﷺ في صورة أعرابي وسأله عن الإسلام قال: «أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً». قال: فما الإيمان؟ قال:

(١) البخاري في الأنبياء (٣٤٤٥) والدارمي في الرقاق ٢/ ٣٢٠.

«أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت، وتؤمن بالقدر خيره وشره». قال: فما الإحسان؟ قال «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك». ثم قال: في آخر الحديث: «هذا جبريل جاءكم يعلمكم دينكم»^(١) فجعل هذا كله من الدين.

والدين يتضمن معنى الخضوع والذل. يقال: دنته فدان، أي: ذلته فذل، ويقال: يدين الله، ويدين لله أي: يعبد الله ويطيعه ويخضع له، فدين الله عبادته وطاعته والخضوع له.

/والعبادة أصل معناها: الذل - أيضاً - يقال: طريق معبد إذا كان مذكلاً قد وطئته ١٠/١٥٣ الأقدام.

لكن العبادة المأمور بها تتضمن معنى الذل ومعنى الحب، فهي تتضمن غاية الذل لله بغاية المحبة له، فإن آخر مراتب الحب هو التتيم، وأوله العلاقة لتعلق القلب بالمحبوب، ثم الصبابة لانصباب القلب إليه، ثم الغرام وهو الحب اللازم للقلب، ثم العشق وآخرها التتيم يقال: تيم الله، أي: عبد الله، فالتتيم المعبد لمحبيه.

ومن خضع لإنسان مع بغضه له لا يكون عابداً له، ولو أحب شيئاً ولم يخضع له لم يكن عابداً له، كما قد يحب ولده وصديقه؛ ولهذا لا يكفي أحدهما في عبادة الله - تعالى - بل يجب أن يكون الله أحب إلى العبد من كل شيء، وأن يكون الله أعظم عنده من كل شيء، بل لا يستحق المحبة والذل التام إلا الله.

وكل ما أحب لغير الله فمحبه فاسدة، وما عظم بغير أمر الله كان تعظيمه باطلاً، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ [التوبة: ٢٤]، فجنس المحبة تكون لله ورسوله، كالطاعة، فإن الطاعة لله ورسوله / والإرضاء لله ورسوله: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ﴾ [التوبة: ٦٢]، والإيتاء لله ورسوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة: ٥٩]. ١٠/١٥٤

وأما العبادة وما يناسبها من التوكل، والخوف، ونحو ذلك فلا يكون إلا لله وحده، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ

(١) البخاري في الإيمان (٥٠) ومسلم في الإيمان (١/٨).

سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿التوبة: ٥٩﴾، فالإيتاء لله والرسول كقوله: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]، وأما الحسب وهو الكافي فهو الله وحده، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤]، أي: حسيبك وحسب من اتبعك الله.

ومن ظن أن المعنى حسيبك الله والمؤمنون معه، فقد غلط غلطاً فاحشاً، كما قد بسطناه في غير هذا الموضع، وقال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦].

وتحرير ذلك: أن العبد يراد به المعبود الذي عبده الله فذله ودبره / وصرفه، وبهذا الاعتبار المخلوقون كلهم عباد الله، من الأبرار والفجار والمؤمنين والكفار وأهل الجنة وأهل النار، إذ هو ربهم كلهم ومليكهم، لا يخرجون عن مشيئته وقدرته، وكلماته الثابتة التي لا يجاوزها بر ولا فاجر، فما شاء كان وإن لم يشأوا. وما شأوا إن لم يشأه لم يكن، كما قال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣].

١٠ / ١٥٥

فهو - سبحانه - رب العالمين وخالقهم، ورازقهم، ومحييهم، ومميتهم، ومقلب قلوبهم، ومصرف أمورهم، لا رب لهم غيره، ولا مالك لهم سواه، ولا خالق إلا هو سواء اعترفوا بذلك أو أنكروه، وسواء علموا ذلك أو جهلوه، لكن أهل الإيمان منهم عرفوا ذلك واعترفوا به، بخلاف من كان جاهلاً بذلك، أو جاحداً له مستكبراً على ربه لا يقر ولا يخضع له، مع علمه بأن الله ربه وخالقه.

فالمعرفة بالحق إذا كانت مع الاستكبار عن قبوله والجدد له كان عذاباً على صاحبه، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

/ فإن اعترف العبد أن الله ربه وخالقه، وأنه مفتقر إليه محتاج إليه عرف العبودية المتعلقة بربوبية الله، وهذا العبد يسأل ربه، فيتضرع إليه ويتوكل عليه، لكن قد يطيع أمره، وقد يعصيه، وقد يعبد مع ذلك، وقد يعبد الشيطان والأصنام.

١٠ / ١٥٦

ومثل هذه العبودية لا تفرق بين أهل الجنة والنار، ولا يصير بها الرجل مؤمناً . كما

قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦]، فإن المشركين كانوا يقرّون أن الله خالقهم ورازقهم وهم يعبدون غيره، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥، الزمر: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ. سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ إلى قوله: ﴿قُلْ فَأَنِّي تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤ - ٨٩].

وكثير من يتكلم في الحقيقة ويشهداها، يشهد هذه الحقيقة وهي الحقيقة الكونية، التي يشترك فيها وفي شهودها ومعرفتها المؤمن، والكافر، والبر، والفاجر، وإبليس معترف بهذه الحقيقة، وأهل النار. قال إبليس: ﴿رَبِّ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يَبْعَثُونَ﴾ [الحجر: ٣٦]، وقال: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لِأُزَيِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٣٩]، وقال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لِأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢]، وقال: ﴿أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ [الإسراء: ٦٢]، وأمثال هذا من الخطاب الذي يقر فيه بأن الله ربه وخالقه وخالق غيره، وكذلك أهل النار قالوا: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا / قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ [المؤمنون: ١٠٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبَّنَا﴾ [الأنعام: ٣٠].

فمن وقف عند هذه الحقيقة وعند شهودها، ولم يقم بما أمر به من الحقيقة الدينية التي هي عبادته المتعلقة بإلهيته، وطاعة أمره وأمر رسوله كان من جنس إبليس وأهل النار، وإن ظن مع ذلك أنه من خواص أولياء الله، وأهل المعرفة والتحقيق الذين يسقط عنهم الأمر والنهي الشرعيان، كان من أشد أهل الكفر والإلحاد.

ومن ظن أن الخضر وغيره سقط عنهم الأمر لمشاهدة الإرادة، ونحو ذلك كان قوله هذا من شر أقوال الكافرين بالله ورسوله. حتى يدخل في النوع الثاني، من معنى العبد وهو العبد بمعنى العابد فيكون عابداً لله لا يعبد إلا إياه، فيطيع أمره وأمر رسله، ويوالي أولياءه المؤمنين المتقين، ويعادي أعداءه، وهذه العبادة متعلقة بإلهيته؛ ولهذا كان عنوان التوحيد لا إله إلا الله بخلاف من يقر بربوبيته ولا يعبد، أو يعبد معه إلهاً آخر، فالإله الذي يألوه القلب بكمال الحب والتعظيم والإجلال والإكرام والخوف والرجاء ونحو ذلك، وهذه العبادة هي التي يحبها الله ويرضاها، وبها وصف المصطفين من عباده، وبها بعث رسله.

وأما العبد، بمعنى المعبد، سواء أقر بذلك أو أنكره، فتلك يشترك / فيها المؤمن والكافر. وبالفرق بين هذين النوعين يعرف الفرق بين الحقائق الدينية الداخلة في عبادة الله ودينه وأمره الشرعي، التي يحبها ويرضاها، ويوالي أهلها، ويكرمهم بجنته، وبين

الحقائق الكونية التي يشترك فيها المؤمن والكافر، والبر والفاجر التي من اكتفى بها، ولم يتبع الحقائق الدينية كان من أتباع إبليس اللعين، والكافرين برب العالمين، ومن اكتفى بها في بعض الأمور دون بعض، أو في مقام أو حال نقص من إيمانه وولايته لله، بحسب ما نقص من الحقائق الدينية.

وهذا مقام عظيم فيه غلط الغالطون، وكثر فيه الاشتباه على السالكين، حتى زلق فيه من أكابر الشيوخ المدعين التحقيق، والتوحيد، والعرفان ما لا يحصيهم إلا الله الذي يعلم السر والإعلان، وإلى هذا أشار الشيخ عبد القادر - رحمه الله - فيما ذكر عنه، فبين أن كثيراً من الرجال، إذا وصلوا إلى القضاء والقدر أمسكوا إلا أنا فإني انفتحت لي فيه روزنة، فنازعت أقدار الحق بالحق للحق، والرجل من يكون منازعاً للقدر، لا من يكون موافقاً للقدر.

والذي ذكره الشيخ - رحمه الله - هو الذي أمر الله به ورسوله، لكن كثيراً من الرجال غلطوا، فإنهم قد يشهدون ما يقدر على أحدهم من المعاصي والذنوب، أو ما يقدر على الناس من ذلك، بل من الكفر، ويشهدون أن هذا جار بمشيئة الله، وقضائه وقدره داخل في حكم ربوبيته ومقتضى مشيئته، فيظنون الاستسلام لذلك وموافقته والرضا به، ونحو ذلك، ديناً وطريقاً وعبادة، فيضاهون المشركين الذين قالوا: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمًا مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، وقالوا: ﴿أَنْطَعُمْ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ [يس: ٤٧]، وقالوا: ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبْدْنَا هُمْ﴾ [الزخرف: ٢٠].

١٠/١٥٩

ولو هدوا؛ لعلموا أن القدر أمرنا أن نرضى به ونصبر على موجهه في المصائب، التي تصيبنا، كال فقر والمرض والخوف، قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١]. وقال بعض السلف: هو الرجل تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم، وقال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ. لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٢، ٢٣].

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «احتج آدم وموسى، فقال موسى: أنت آدم الذي خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء، فلماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة؟ فقال آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالته وبكلامه، فهل وجدت ذلك مكتوباً علي قبل أن أخلق؟ قال: نعم. قال: فحج آدم موسى»^(١).

(١) البخاري في التوحيد (٧٥١٥) ومسلم في القدر (١٣/٢٦٥٢).

١٠/١٦٠ /وآدم - عليه السلام - لم يحتج على موسى بالقدر، ظناً أن المذنب يحتج بالقدر، فإن هذا لا يقوله مسلم ولا عاقل، ولو كان هذا عذراً لكان عذراً لإبليس، وقوم نوح، وقوم هود، وكل كافر، ولا موسى لام آدم أيضاً؛ لأجل الذنب، فإن آدم قد تاب إلى ربه، فاجتبه وهدى، ولكن لآدم؛ لأجل المصيبة التي لحقتهم بالخطيئة؛ ولهذا قال: فلماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة؟ فأجابه آدم أن هذا كان مكتوباً قبل أن أخلق، فكان العمل والمصيبة المترتبة عليه مقدراً، وما قدر من المصائب يجب الاستسلام له، فإنه من تمام الرضا بالله رباً.

وأما الذنوب، فليس للعبد أن يذنب، وإذا أذنب، فعليه أن يستغفر ويتوب، فيتوب من المعائب ويصبر على المصائب. قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [غافر: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرَّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً﴾ [آل عمران: ١٢٠]، وقال: ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦]، وقال يوسف: ﴿إِنَّهُ مِنْ يَتَقٍ وَيَصْبِرُ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

وكذلك ذنوب العباد، يجب على العبد فيها أن يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر - بحسب قدرته - ويجاهد في سبيل الله الكفار والمنافقين، ويوالي أولياء الله، ويعادي أعداء الله، ويحب في الله، ويبغض في الله. كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي

١٠/١٦١ وَعَدُوِّكُمْ / أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَةِ﴾ إلى قوله: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ﴾ [المتحنة: ١- ٤]، وقال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ [القلم: ٣٥]، وقال: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ . وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ . وَلَا الظُّلُ وَلَا الْحُرُورُ . وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ [فاطر: ١٩- ٢٢]، وقال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [الزمر: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ إلى قوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ

أَحَدُهُمَا أَبْكُمْ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ» إِلَى قَوْلِهِ: «وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» [النحل: ٧٥، ٧٦]،
وَقَالَ تَعَالَى: «لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ» [الحشر: ٢٠].

ونظائر ذلك ، مما يفرق الله فيه بين أهل الحق ، والباطل ، وأهل الطاعة ، وأهل
/ المعصية ، وأهل البر ، وأهل الفجور ، وأهل الهدى ، والضلال ، وأهل الغي ، ١٠/١٦٢
والرشاد ، وأهل الصدق والكذب.

فمن شهد الحقيقة الكونية ، دون الدينية سوى بين هذه الأجناس المختلفة التي فرق
الله بينها غاية التفريق ، حتى يؤول به الأمر إلى أن يسوى الله بالأصنام ، كما قال تعالى
عَنْهُمْ: «تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ. إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ» [الشعراء: ٩٧، ٩٨] بل قد
آل الأمر بهؤلاء إلى أن سواوا الله بكل موجود ، وجعلوا ما يستحقه من العبادة والطاعة
حقاً لكل موجود ، إذ جعلوه هو وجود المخلوقات ، وهذا من أعظم الكفر والإلحاد برب
العباد.

وهؤلاء يصل بهم الكفر إلى أنهم لا يشهدون أنهم عباد لا بمعنى أنهم معبدون، ولا
بمعنى أنهم عابدون، إذ يشهدون أنفسهم هي الحق، كما صرح بذلك طواغيتهم كابن عربي
صاحب «الفصوص» ، وأمثاله من الملحدين المفتريين، كابن سبعين وأمثاله، ويشهدون أنهم
هم العابدون والمعبودون، وهذا ليس بشهود الحقيقة ، لا كونية ولا دينية، بل هو ضلال
وعمى عن شهود الحقيقة الكونية، حيث جعلوا وجود الخالق هو وجود المخلوق ، وجعلوا
كل وصف مذموم ، وممدوح نعتاً للخالق والمخلوق ، إذ وجود هذا ، هو وجود هذا
عندهم.

/ وأما المؤمنون بالله ورسوله، عوامهم وخواصهم، الذين هم أهل الكتاب، كما قال ١٠/١٦٣
النبي ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ أَهْلِينَ مِنَ النَّاسِ» قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: «أَهْلُ الْقُرْآنِ
هُمُ أَهْلُ اللَّهِ، وَخَاصَّتُهُ»^(١). فهؤلاء يعلمون أن الله رب كل شيء ومليكه وخالقه، وأن
الخالق - سبحانه - مبين للمخلوق، ليس هو حالاً فيه ولا متحداً به ولا وجوده وجوده.

والنصارى، كفرهم الله بأن قالوا بالحللول والاتحاد بالمسيح خاصة، فكيف من جعل
ذلك عاماً في كل مخلوق؟.

ويعلمون مع ذلك أن الله أمر بطاعته، وطاعة رسوله، ونهى عن معصيته، ومعصية
رسوله، وأنه لا يحب الفساد، ولا يرضى لعباده الكفر، وإن على الخلق أن يعبدوه،

(١) ابن ماجه في المقدمة (٢١٥) وفي الزوائد: «إسناده صحيح»، والدارمي في فضائل القرآن ٢/٤٣٣، وأحمد
٣/١٢٧، ١٢٨، ٢٤٢، كلهم عن أنس بن مالك.

فيطيعوا أمره ويستعينوا به على ذلك، كما قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

ومن عبادته وطاعته: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر - بحسب الإمكان - والجهاد في سبيله، لأهل الكفر والنفاق. فيجتهدون في إقامة دينه، مستعينين به، دافعين مزيلين بذلك ما قدر من السيئات، دافعين بذلك ما قد يخاف من ذلك، كما يزيل الإنسان الجوع الحاضر بالأكل، ويدفع به الجوع المستقبل، وكذلك، إذا آن أوان البرد / دفعه باللباس، وكذلك كل مطلوب يدفع به مكروهه. كما قالوا للنبي ﷺ: يا رسول الله، أرأيت أدوية تداوى بها، ورقى نسترقى بها وتقاة نتقي بها هل ترد من قدر الله شيئاً؟ فقال: «هي من قدر الله»^(١). وفي الحديث: «إن الدعاء والبلاء ليقتيان فيعتلجان بين السماء والأرض»^(٢). فهذا حال المؤمنين بالله ورسوله العابدين لله وكل ذلك من العبادة.

وهؤلاء الذين يشهدون الحقيقة الكونية، وهي ربوبيته - تعالى - لكل شيء، ويجعلون ذلك مانعاً من اتباع أمره الديني الشرعي على مراتب في الضلال.

فغلاتهم يجعلون ذلك مطلقاً عاماً، فيحتجون بالقدر في كل ما يخالفون فيه الشريعة، وقول هؤلاء شر من قول اليهود والنصارى، وهو من جنس قول المشركين الذين قالوا: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرُمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، وقالوا: ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ [الزخرف: ٢٠].

وهؤلاء من أعظم أهل الأرض تناقضاً، بل كل من احتج بالقدر، فإنه متناقض، فإنه لا يمكن أن يقر كل آدمي على ما فعل، فلا بد إذا ظلمه ظالم، أو ظلم الناس ظالم، وسعى في الأرض بالفساد وأخذ يسفك دماء الناس ويستحل الفروج ويهلك الحرث والنسل ونحو ذلك من / أنواع الضرر التي لا قوام للناس بها أن يدفع هذا القدر، وأن يعاقب الظالم بما يكف عدوان أمثاله. فيقال له: إن كان القدر حجة فدع كل أحد يفعل ما يشاء بك وبغيرك، وإن لم يكن حجة بطل أصل قولك: حجة. وأصحاب هذا القول الذين يحتجون بالحقيقة الكونية لا يطرودون هذا القول ولا يلتزمونه، وإنما هم بحسب آرائهم وأهوائهم، كما قال فيهم بعض العلماء: أنت عند الطاعة قدرتي، وعند المعصية جبيري، أي مذهب وافق هواك تمذهبت به.

ومنهم صنف يدعون التحقيق والمعرفة، فيزعمون أن الأمر والنهي لازم لمن شهد لنفسه فعلاً، وأثبت له صنعاً، أما من شهد أن أفعاله مخلوقة، أو أنه مجبور على ذلك،

(١) ابن ماجه في الطب (٣٤٣٧) عن أبي خزيمة، وضعفه الألباني.

(٢) ذكره الهيثمي في المجمع (١٤٩/١٠) وقال: «رواه البزار، وفيه إبراهيم بن خيثم بن عراك وهو متروك».

وأن الله هو المتصرف فيه ، كما تحرك سائر المتحركات ، فإنه يرتفع عنه الأمر والنهي ، والوعد والوعيد .

وقد يقولون : من شهد الإرادة ، سقط عنه التكليف ، ويزعم أحدهم أن الخضر سقط عنه التكليف ؛ لشهوده الإرادة ، فهؤلاء لا يفرقون بين العامة والخاصة الذين شهدوا الحقيقة الكونية ، فشهدوا أن الله خالق أفعال العباد ، وأنه يدبر جميع الكائنات ، وقد يفرقون بين من يعلم ذلك علماً ، وبين من يراه شهوداً ، فلا يسقطون التكليف عمن يؤمن بذلك ويعلمه فقط ، ولكن عمن / يشهده ، فلا يرى لنفسه فعلاً أصلاً ، وهؤلاء لا يجعلون الجبر وإثبات القدر مانعاً من التكليف على هذا الوجه . ١٠ / ١٦٦

وقد وقع في هذا طوائف من المنتسبين إلى التحقيق والمعرفة والتوحيد .

وسبب ذلك أنه ضاق نطاقهم ، عن كون العبد يؤمر بما يقدر عليه خلافه ، كما ضاق نطاق المعتزلة ، ونحوهم من القدرية عن ذلك . ثم المعتزلة أثبتت الأمر والنهي الشرعيين دون القضاء والقدر الذي هو إرادة الله العامة وخلقه لأفعال العباد ، وهؤلاء أثبتوا القضاء والقدر ، ونفوا الأمر والنهي ، في حق من شهد القدر ، إذ لم يمكنهم نفي ذلك مطلقاً . وقول هؤلاء شر من قول المعتزلة ؛ ولهذا لم يكن في السلف من هؤلاء أحد ، وهؤلاء يجعلون الأمر والنهي للمحجوبين الذين لم يشهدوا هذه الحقيقة الكونية ؛ ولهذا يجعلون من وصل إلى شهود هذه الحقيقة يسقط عنه الأمر والنهي ، وصار من الخاصة .

وربما تأولوا على ذلك قوله تعالى : ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر : ٩٩] ،

وجعلوا اليقين هو معرفة هذه الحقيقة ، وقول هؤلاء كفر صريح . وإن وقع فيه طوائف لم يعلموا أنه كفر ، فإنه قد علم بالاضطرار من دين الإسلام ، أن الأمر والنهي لازم لكل عبد ما دام عقله حاضراً إلى / أن يموت ، لا يسقط عنه الأمر والنهي ، لا بشهوده القدر ، ولا بغير ذلك ، فمن لم يعرف ذلك عرفه ، وبين له فإن أصر على اعتقاد سقوط الأمر والنهي فإنه يقتل . وقد كثرت مثل هذه المقالات في المستأخرين . ١٠ / ١٦٧

وأما المستقدمون من هذه الأمة ، فلم تكن هذه المقالات معروفة فيهم .

وهذه المقالات هي محادة لله ورسوله ، ومعادة له ، وصد عن سبيله ، ومشاقة له ، وتكذيب لرسوله ، ومضادة له في حكمه ، وإن كان من يقول هذه المقالات قد يجهل ذلك ويعتقد أن هذا الذي هو عليه هو طريق الرسول ، وطريق أولياء الله المحققين ، فهو في ذلك بمنزلة من يعتقد أن الصلاة لا تحب عليه ؛ لاستغنائه عنها بما حصل له من الأحوال القلبية ، أو أن الخمر حلال له ؛ لكونه من الخواص الذين لا يضرهم شرب الخمر ، أو أن

الفاحشة حلال له؛ لأنه صار كالبحر لا تذكره الذنوب، ونحو ذلك.

ولا ريب أن المشركين الذين كذبوا الرسل يترددون بين البدعة المخالفة لشرع الله، وبين الاحتجاج بالقدر على مخالفة أمر الله. فهولاء الأصناف / فيهم شبه من المشركين ، ١٠/١٦٨ إما أن يتدعوا ، وإما أن يحتجوا بالقدر ، وإما أن يجمعوا بين الأمرين . كما قال تعالى عن المشركين: ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرْنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ اتَّقُوا اللَّهَ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ٢٨] ، وكما قال تعالى عنهم : ﴿ سَيَقُولُ (١) الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام : ١٤٨].

وقد ذكر عن المشركين ما ابتدعوه من الدين الذي فيه تحليل الحرام ، والعبادة التي لم يشرعها الله بمثل قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرِثَ حَجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بَزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءٌ عَلَيْهِ ﴾ إلى آخر السورة [الأنعام: ١٣٨-١٦٥]، وكذلك في سورة الأعراف في قوله: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرْنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ﴾ إلى قوله: ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ . قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾ إلى قوله: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٣-٢٧].

/وهؤلاء قد يسمون ما أحدثوه من البدع حقيقة، كما يسمون ما يشهدون من القدر ١٠/١٦٩ حقيقة. وطريق الحقيقة عندهم هو السلوك الذي لا يتقيد صاحبه بأمر الشارع ونهيه ، ولكن بما يراه ويدوقه ويجده ، ونحو ذلك . وهؤلاء لا يحتجون بالقدر مطلقاً ، بل عمدتهم اتباع آرائهم وأهوائهم ، وجعلهم لما يرونه ويهوونه حقيقة ، وأمرهم باتباعها ، دون اتباع أمر الله ورسوله ، نظير بدع أهل الكلام من الجهمية ، وغيرهم ، الذين يجعلون ما ابتدعوه من الأقوال المخالفة للكتاب والسنة حقائق عقلية يجب اعتقادها ، دون ما دلت عليه السمعية . ثم الكتاب والسنة ، إما أن يحرفوه عن مواضعه ، وإما أن يعرضوا عنه بالكلية، فلا يتدبرونه ولا يعقلونه، بل يقولون: نفوض معناه إلى الله، مع اعتقادهم

(١) في المطبوعة: «وقال»، والصواب ما أثبتناه.

نقيض مدلوله. وإذا حقق على هؤلاء ما يزعمونه من العقليات المخالفة للكتاب والسنة، وجدت جهليات واعتقادات فاسدة.

وكذلك أولئك إذا حقق عليهم ما يزعمونه من حقائق أولياء الله، المخالفة للكتاب والسنة، وجدت من الأهواء التي يتبعها أعداء الله لا أولياؤه.

وأصل ضلال من ضل، هو بتقديم قياسه على النص المنزل من عند الله، واختياره الهوى على اتباع أمر الله، فإن الذوق والوجد ونحو ذلك، هو بحسب ما يحبه العبد، فكل محب له ذوق، ووجد بحسب محبته. فأهل الإيمان لهم من الذوق والوجد مثل ما بينه النبي ﷺ بقوله في الحديث الصحيح: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما / سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا الله، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه، كما يكره أن يلقى في النار» (١). وقال ﷺ في الحديث الصحيح: «ذاق طعم الإيمان من رضى بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً» (٢).

١٠/١٧٠

وأما أهل الكفر والبدع والشهوات، فكل بحسبه، قيل لسفيان بن عيينة: ما بال أهل الأهواء لهم محبة شديدة لأهوائهم؟! فقال: أنسيت قوله تعالى: ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة: ٩٣]؟!، أو نحو هذا من الكلام. فعباد الأصنام يحبون آلهتهم، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وقال: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمِنْ أَهْلِ مَمْنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بَغِيرَ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠]، وقال: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدًى﴾ [النجم: ٢٣]؛ ولهذا يميل هؤلاء إلى سماع الشعر والأصوات التي تهيج المحبة المطلقة، التي لا تختص بأهل الإيمان، بل يشترك فيها محب الرحمن، ومحب الأوثان، ومحب الصليبان، ومحب الأوطان، ومحب الإخوان، ومحب المردان، ومحب النسوان. وهؤلاء الذين يتبعون أذواقهم، ومواجيدهم من غير اعتبار لذلك بالكتاب والسنة، وما كان عليه سلف الأمة.

فالمخالف لما بعث به رسوله من عبادته وطاعته، وطاعة رسوله لا يكون متبعاً لدين، شرعه الله، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا / وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ . إِنَّهُمْ لَن يَغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ إلى قوله: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ١٧]، [١٨]، بل يكون متبعاً لهواه بغير هدى من الله، قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِّنَ

١٠/١٧١

(١، ٢) سبق تخريجهما ص ٣٢.

الدِّينَ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ» [الشورى: ٢١]، وهم في ذلك تارة يكونون على بدعة يسمونها حقيقة يقدمونها على ما شرعه الله، وتارة يحتجون بالقدر الكوني على الشريعة، كما أخبر الله به عن المشركين، كما تقدم.

ومن هؤلاء طائفة هم أعلاهم قدراً، وهم مستمسكون بالدين في أداء الفرائض المشهورة، واجتناب المحرمات المشهورة، لكن يغلطون في ترك ما أمروا به من الأسباب التي هي عبادة، ظانين أن العارف إذا شهد «القدر» أعرض عن ذلك، مثل من يجعل التوكل منهم أو الدعاء، ونحو ذلك من مقامات العامة دون الخاصة، بناء على أن من شهد القدر علم أن ما قدر سيكون، فلا حاجة إلى ذلك، وهذا غلط عظيم. فإن الله قدر الأشياء بأسبابها كما قدر السعادة والشقاوة بأسبابها، كما قال النبي ﷺ: «إن الله خلق للجنة أهلاً، خلقها لهم وهم في أصلاص آبائهم، ويعمل أهل الجنة يعملون»^(١)، وكما قال النبي ﷺ لما أخبرهم بأن الله كتب المقادير فقالوا: يا رسول الله، أفلا ندع العمل ونتكل على الكتاب؟ فقال: «لا، اعملوا فكل ميسر لما خلق له، أما من كان من أهل السعادة، فسييسر لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاوة، فسييسر لعمل أهل الشقاوة»^(٢).

١٠/١٧٢ / فما أمر الله به عباده من الأسباب فهو عبادة والتوكل مقرون بالعبادة كما في قوله تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، وفي قوله: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابُ﴾ [الرعد: ٣٠]، وقول شعيب - عليه السلام - : ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

ومنهم طائفة قد تترك المستحبات من الأعمال دون الواجبات، فتتقص بقدر ذلك. ومنهم طائفة يغترون بما يحصل لهم من خرق عادة مثل مكاشفة، أو استجابة دعوة مخالفة العادة العامة، ونحو ذلك، فيشتغل أحدهم عما أمر به من العبادة، والشكر، ونحو ذلك.

(١) مسلم في القدر (٢٦٦٢/٣٠، ٣١)، وأبو داود في السنة (٤٧١٣)، وابن ماجه في المقدمة (٨٢)، وأحمد ٤١/٦، ٢٠٨، كلهم عن عائشة.

(٢) البخاري في التفسير (٤٩٤٩)، ومسلم في القدر (٢٦٤٧/٦، ٧)، وأبو داود في السنة (٤٦٩٤)، والترمذي في القدر (٢١٣٦)، وقال: «حديث حسن صحيح»، كلهم عن علي.

فهذه الأمور ونحوها كثيراً ما تعرض لأهل السلوك والتوجه ، وإنما ينجو العبد منها بملازمة أمر الله الذي بعث به رسوله في كل وقت . كما قال الزهري : كان من مضى من سلفنا يقولون : الاعتصام بالسنة نجاة . وذلك أن السنة - كما قال مالك رحمه الله - مثل سفينة نوح من ركبها نجا ، ومن تخلف عنها غرق .

والعبادة، والطاعة، والاستقامة، ولزوم الصراط المستقيم، ونحو ذلك من الأسماء مقصودها واحد، ولها أصلان :

/أحدهما: ألا يعبد إلا الله .

١٠ / ١٧٣

والثاني: أن يعبد بما أمر وشرع لا بغير ذلك من البدع . قال تعالى : ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠] ، وقال تعالى : ﴿يَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١٢] ، وقال تعالى : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥] ، فالعمل الصالح هو الإحسان وهو فعل الحسنات . والحسنات ، هي ما أحبه الله ورسوله ، وهو ما أمر به أمر إيجاب ، أو استحباب ، فما كان من البدع في الدين التي ليست مشروعة ، فإن الله لا يحبها ولا رسوله ، فلا تكون من الحسنات ، ولا من العمل الصالح ، كما أن من يعمل ما لا يجوز كالفواحش ، والظلم ليس من الحسنات ، ولا من العمل الصالح .

وأما قوله : ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ وقوله : ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ ، فهو إخلاص الدين لله وحده ، وكان عمر بن الخطاب يقول : اللهم اجعل عملي كله صالحاً ، واجعله لوجهك خالصاً ، ولا تجعل لأحد فيه شيئاً .

وقال الفضيل بن عياض في قوله : ﴿لِيَلُوكُمْ أُيُكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧ ، الملك: ٢] ،

قال : أخلصه ، وأصوبه . قالوا : يا أبا علي ، ما أخلصه وأصوبه ؟ قال : / إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل ، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل ، حتى يكون خالصاً صواباً ، والخالص أن يكون لله ، والصواب أن يكون على السنة .

١٠ / ١٧٤

فإن قيل : فإذا كان جميع ما يحبه الله داخلياً في اسم العبادة ، فلماذا عطف عليها غيرها ، كقوله : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] ، وقوله : ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣] ، وقال نوح : ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ﴾ [نوح: ٣] ، وكذلك قول غيره من

الرسول . قيل : هذا له نظائر ، كما في قوله : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ [العنكبوت: ٤٥] ، والفحشاء من المنكر ، وكذلك قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ﴾ [النحل: ٩٠] ، وإيتاء ذي القربى هو من العدل والإحسان ، كما أن الفحشاء والبغي من المنكر ، وكذلك قوله : ﴿ وَالَّذِينَ يَمْسُكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾ [الأعراف: ١٧٠] ، وإقامة الصلاة من أعظم التمسك بالكتاب ، وكذلك قوله : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾ [الأنبياء: ٩٠] ، ودعائهم رغبا ورهبا من الخيرات ، وأمثال ذلك في القرآن كثير .

وهذا الباب يكون تارة مع كون أحدهما بعض الآخر ، فيعطف عليه تخصيصاً له بالذكر ؛ لكونه مطلوباً بالمعنى العام ، والمعنى الخاص ، وتارة تكون دلالة الاسم تتنوع بحال الانفراد والاقتران ، فإذا أفرد عم ، وإذا قرن بغيره خص ، كاسم الفقير ، والمسكين لما / أفرد أحدهما في مثل قوله : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٧٣] ، وقوله : ﴿ فَكَفَّارَتُهُ (١) إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ ﴾ [المائدة: ٨٩] ، دخل فيه الآخر ، ولما قرن بينهما في قوله : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ﴾ [التوبة: ٦٠] صاراً نوعين .

وقد قيل : إن الخاص المعطوف على العام لا يدخل في العام حال الاقتران ، بل يكون من هذا الباب . والتحقيق أن هذا ليس لازماً ، قال تعالى : ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ ﴾ [البقرة: ٩٨] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﴾ [الأحزاب: ٧] .

وذكر الخاص مع العام يكون ، لأسباب متنوعة ، تارة لكونه له خاصية ليست لسائر أفراد العام ، كما في نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ، وتارة ؛ لكون العام فيه إطلاق قد لا يفهم منه العموم ، كما في قوله : ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ . الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ . وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ﴾ [البقرة: ٢-٤] ، فقوله : يؤمنون بالغيب يتناول الغيب الذي يجب الإيمان به ، لكن فيه إجمال ، فليس فيه دلالة على أن من الغيب ، ما أنزل إليك ، وما أنزل من قبلك . وقد يكون المقصود أنهم يؤمنون بالمخبر به وهو الغيب ، وبالإخبار بالغيب ، وهو ما أنزل إليك ، وما أنزل من قبلك .

/ ومن هذا الباب قوله تعالى : ﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ﴾ [العنكبوت: ٤٥] ، وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ يَمْسُكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾ [الأعراف: ١٧٠] ،

(١) في المطبوعة : « أو » ، والصواب ما أثبتناه .

وتلاوة الكتاب، هي اتباعه، كما قال ابن مسعود في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ [البقرة: ١٢١]، قال: يحللون حلاله ويحرمون حرامه، ويؤمنون بمشابهه ويعملون بمحكمه، فاتباع الكتاب يتناول الصلاة وغيرها، لكن خصها بالذكر لمزيتها. وكذلك قوله لموسى: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤]، وإقامة الصلاة لذكره من أجل عبادته، وكذلك قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا﴾ [المائدة: ٣٥]، وقوله: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]، فإن هذه الأمور هي أيضاً من تمام تقوى الله، وكذلك قوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، فإن التوكل والاستعانة هي من عبادة الله، لكن خصت بالذكر، ليقصدها المتعبد بخصوصها، فإنها هي العون على سائر أنواع العبادة إذ هو - سبحانه - لا يعبد إلا بمعونته.

إذا تبين هذا، فكمال المخلوق في تحقيق عبوديته لله، وكلما ازداد العبد تحقيقاً للعبودية ازداد كماله وعلت درجته، ومن توهم أن المخلوق يخرج عن العبودية بوجه من الوجوه. أو أن الخروج عنها أكمل فهو من أجهل الخلق وأضلهم. قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ . لَا يُسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ / إلى قوله: ﴿وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦ - ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا . لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ إلى قوله: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنَ عَبْدًا . لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا . وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٨٨ - ٩٥]، وقال تعالى في المسيح: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الزخرف: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ . يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩، ٢٠]، وقال تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرْهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا يَجْدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٧٢، ١٧٣]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ . فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾ [فصلت: ٣٧، ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَادْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥، ٢٠٦].

١٠ / ١٧٧

وهذا ونحوه مما فيه وصف أكابر المخلوقات بالعبادة، وذم من خرج عن ذلك متعدد في القرآن، وقد أخبر أنه أرسل جميع الرسل بذلك. / فقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى لبني إسرائيل: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت: ٥٦]، ﴿وَيَايَاقُتُونَ﴾ [البقرة: ٤١]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]، وقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ . وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ . قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ . قُلِ اللَّهُ أَعْبَدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي . فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ [الزمر: ١١-١٥].

وكل رسول من الرسل افتتح دعوته بالدعاء إلى عبادة الله، كقول نوح ومن بعده عليهم السلام: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [المؤمنون: ٢٣]، وفي المسند عن ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: «بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري»^(١).

وقد بين أن عباده هم الذين ينجون من السيئات، قال الشيطان: ﴿بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٣٩، ٤٠]، قال تعالى: ﴿إِنْ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا / مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢]، وقال: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢، ٨٣]، وقال في حق يوسف: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]، وقال: ﴿سَبِّحَانَ اللَّهَ عَمَّا يَصِفُونَ . إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الصافات: ١٥٩، ١٦٠]، وقال: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٩٩، ١٠٠]، وبها نعت كل من اصطفي من خلقه، كقوله: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِيَ الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ . إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذَكَرَى الدَّارِ . وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفِينَ الْآخِيَارِ﴾ [ص: ٤٥-٤٧]، وقوله: ﴿وَاذْكُرْ عِبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧]، وقال عن سليمان: ﴿نَعَمْ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠]، وعن أيوب: ﴿نَعَمْ الْعَبْدُ﴾ [ص: ٤٤]، وقال: ﴿وَاذْكُرْ عِبْدَنَا أَيُّوبَ﴾

(١) أحمد ٥٠ / ٢، ٩٢، والبخاري معلقاً في الفتح ٩٨ / ٦ عن ابن عمر.

إِذْ نَادَى رَبُّهُ ﴿[ص: ٤١]، وقال عن نوح عليه السلام : ﴿ذُرِّيَّةٌ مِّنْ حَمَلِنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣]، وقال : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١]، وقال : ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩]، وقال : ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣]، وقال : ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠]، وقال : ﴿عَيْنَا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦]، وقال : ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، ومثل هذا كثير متعدد في القرآن .

فصل /

١٠ / ١٨٠

إذا تبين ذلك، فمعلوم أن هذا الباب يتفاضلون فيه تفاضلاً عظيماً ، وهو تفاضلهم في حقيقة الإيمان ، وهم ينقسمون فيه ، إلى عام ، وخاص ؛ ولهذا كانت ربوبية الرب لهم فيها عموم وخصوص ؛ ولهذا كان الشرك في هذه الأمة أخفى من ديب النمل . وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : «تَعَسَّ عَبْدُ الدَّرْهَمِ، تَعَسَّ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعَسَّ عَبْدُ الْقُطَيْفَةِ، تَعَسَّ عَبْدُ الْخَمِيصَةِ ، تَعَسَّ وَانْتَكَسَ ، وَإِذَا شَيْكَ فَلَا انْتَقَشَ ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ مَنَعَ سَخَطَ» (١).

فسماه النبي ﷺ عبد الدرهم، وعبد الدينار، وعبد القطيفة، وعبد الخميصة . وذكر ما فيه دعاء وخبر ، وهو قوله : «تَعَسَّ وَانْتَكَسَ ، وَإِذَا شَيْكَ فَلَا انْتَقَشَ» ، والنقش : إخراج الشوكة من الرجل ، والمقاش ما يخرج به الشوكة . وهذه حال من إذا أصابه شر لم يخرج منه ، ولم يفلح ؛ لكونه تَعَسَّ وانْتَكَسَ ، فلا نال المطلوب ولا خلص من المكروه ، وهذه حال من عبد المال ، وقد وصف ذلك بأنه «إِذَا أُعْطِيَ رَضِيَ ، وَإِذَا مَنَعَ سَخَطَ» ، كما قال تعالى : ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ / أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسَخَطُونَ﴾ [التوبة: ٥٨] ، فرضاهم لغير الله وسخطهم لغير الله ، وهكذا حال من كان متعلقاً برئاسة أو بصورة ونحو ذلك من أهواء نفسه إن حصل له رضي ، وإن لم يحصل له سخط ، فهذا عبد ما يهواه من ذلك ، وهو رفيق له ، إذ الرق والعبودية في الحقيقة هو رق القلب وعبوديته ، فما استرق القلب ، واستعبده فهو عبده ، ولهذا يقال :

١٠ / ١٨١

العبد حر ما قنع والحر عبد ما طمع

(١) البخاري في الجهاد (٢٨٨٧) عن أبي هريرة .

أطعت مطامعي فاستعبدتني ولو أنى قنعت لكنت حراً

ويقال : الطمع غل في العنق، قيد في الرجل، فإذا زال الغل من العنق زال القيد من الرجل. ويروي عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أنه قال: الطمع فقر ، واليأس غني، وإن أحدكم إذا يئس من شيء استغنى عنه. وهذا أمر يجده الإنسان من نفسه، فإن الأمر الذي يئس منه لا يطلبه، ولا يطمع به، ولا يبقى قلبه فقيراً إليه، ولا إلى من يفعله، وأما إذا طمع في أمر من الأمور، ورجاه تعلق قلبه به، فصار فقيراً إلى حصوله، وإلى من يظن أنه سبب في حصوله، وهذا في المال والجاه، والصور وغير ذلك. قال الخليل رحمه الله : «فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» [العنكبوت: ١٧].

/ فالعبد لا بد له من رزق ، وهو محتاج إلى ذلك، فإذا طلب رزقه من الله صار عبداً لله، فقيراً إليه، وإن طلبه من مخلوق صار عبداً لذلك المخلوق فقيراً إليه .

ولهذا كانت مسألة المخلوق محرمة في الأصل، وإنما أبيحت للضرورة. وفي النهي عنها أحاديث كثيرة في الصحاح والسنن والمسانيد. كقوله رحمه الله : « لا تزال المسألة بأحدكم حتى يأتي يوم القيامة وليس في وجهه مُزعة لحم »^(١)، وقوله : « من سأل الناس وله ما يغنيه جاءت مسألته يوم القيامة خدوشاً أو خموشاً، أو كدوحاً في وجهه »^(٢)، وقوله : « لا تحل المسألة إلا لذي غرم مظف، أو دم »^(٣) موجه، أو فقر مدقع^(٤)، هذا المعنى في الصحيح . وفيه أيضاً : « لأن يأخذ أحدكم حبله فيذهب فيحتطب خير له من أن يسأل الناس أعطوه، أو منعوه »^(٥)، وقال : « ما أتاك من هذا المال وأنت غير سائل ، ولا مشرف فخذ ، وما لا فلا تتبعه نفسك »^(٦) فكره أخذه من سؤال اللسان واستشرف القلب ، وقال في الحديث الصحيح : « من يستغن يغنه الله ، ومن يستعفف يعفه الله ، ومن يتصبر يصبره »

(١) البخاري في الزكاة (١٤٧٤)، وأحمد ١٥/٢، ٨٨ ، والنسائي في الزكاة (٢٥٨٥).

ومزعة لحم: أي قطعة يسيرة من اللحم . انظر: النهاية في غريب الحديث ٣٢٥/٤.

(٢) أبو داود في الزكاة (١٦٢٦) ، والترمذي في الزكاة (٦٥٠) وقال : « حسن »، والنسائي في الزكاة (٢٥٩٢)، وابن ماجه في الزكاة (١٨٤٠)، وأحمد ١/٣٨٨، ٤٤١، والحاكم ١/٤٠٧ وسكت عنه هو والذهبي ، والدارقطني

في الزكاة ١٢٢/٢، كلهم عن عبد الله بن مسعود.

والخدوش والخموش والكُدُوح بمعنى واحد. انظر: النهاية في غريب الحديث ٧٩/٢ ، ٨٠ ، ١٥٥/٤.

(٣) في المطبوعة : « دمع » ، والصواب ما أثبتناه من مسند أحمد ٣ / ١١٤ .

(٤) أحمد ٣ / ١١٤ ، ١٢٧ .

الفقر المدقع: الشديد ، والغرم المظف: هو حاجة لازمة من غرامة مثقلة.

(٥) البخاري في الزكاة (١٤٧١) والنسائي في الزكاة (٢٥٨٩) وابن ماجه في الزكاة (١٨٣٦).

(٦) البخاري في الزكاة (١٤٧٣)، ومسلم في الزكاة (١٠٤٥/١١٠، ١١١)، والنسائي في الزكاة (٢٦٠٤)، والدارمي

في الزكاة ٣٨٨/١، وأحمد ١٧/١، ٢١، كلهم عن عمر بن الخطاب.

الله، وما أعطى أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر»^(١) وأوصى خواص أصحابه ألا يسألوا الناس شيئاً وفي المسند: إن أبا بكر كان يسقط السوط من يده، فلا يقول لأحد ناولني إياه، ويقول: إن خليلي أمرني ألا أسأل الناس شيئاً^(٢). وفي صحيح مسلم وغيره، عن عوف ابن مالك: أن النبي ﷺ بايعه في طائفة وأسر إليهم كلمة خفية: «ألا تسألوا الناس شيئاً»، فكان بعض أولئك نفر يسقط السوط من يد أحدهم، ولا يقول لأحد: ناولني إياه^(٣).

١٠/١٨٣

وقد دلت النصوص على الأمر بمسألة الخالق، والنهي عن مسألة المخلوق، في غير موضع. كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ . وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [الشرح: ٧، ٨]، وقول النبي ﷺ لابن عباس: «إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ»^(٤)، ومنه قول الخليل: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ [العنكبوت: ١٧]، ولم يقل: فابتغوا الرزق عند الله؛ لأن تقديم الظرف يشعر بالاختصاص والحصر، كأنه قال: لا تبتغوا الرزق إلا عند الله. وقد قال تعالى: ﴿وَأَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٣٢]، والإنسان لا بد له من حصول ما يحتاج إليه من الرزق ونحوه، ودفع ما يضره، وكلا الأمرين شرع له أن يكون دعاؤه لله، فله أن يسأل الله، وإليه يشتكي، كما قال يعقوب - عليه السلام -: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦].

والله - تعالى - ذكر في القرآن الهجر الجميل، والصفح الجميل، والصبر الجميل.

وقد قيل: إن الهجر الجميل، هو هجر بلا أذى. والصفح الجميل صفح بلا معاتبة. والصبر الجميل، صبر بغير شكوى إلى المخلوق؛ ولهذا قرئ على أحمد بن حنبل في مرضه أن طاوساً كان يكره أنين / المريض، ويقول: إنه شكوى فما أن أحمد حتى مات.

١٠/١٨٤

وأما الشكوى إلى الخالق، فلا تنافي الصبر الجميل، فإن يعقوب قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف: ٨٣]، وقال: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾، وكان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يقرأ في الفجر بسورة يونس، ويوسف، والنحل، فمر بهذه الآية في قراءته فبكى حتى سمع نشيجه من آخر الصفوف، ومن دعاء موسى: «اللهم لك الحمد، وإليك المشتكى، وأنت المستعان، وبك المستغاث، وعليك التكلان، ولا حول ولا قوة إلا

(١) البخاري في الزكاة (١٤٦٩)، ومسلم في الزكاة (١٠٥٣/١٢٤)، وأبو داود في الزكاة (١٦٤٤)، والترمذي في البر والصلة (٢٠٢٤)، وقال: «حديث حسن صحيح»، والدارمي في الزكاة (٣٨٧/١)، وأحمد (١٢/٣)، ٩٣، كلهم عن أبي سعيد الخدري.

(٢) أحمد (١١/١)، وضعفه الشيخ أحمد شاكر في شرحه للمسند (٦٥) وعلته: الانقطاع بين ابن أبي مليكة وأبي بكر.

(٣) مسلم في الزكاة (١٠٤٣/١٠٨) وابن ماجه في الجهاد (٢٨٦٧) وأبو داود في الزكاة (١٦٤٢).

(٤) الترمذي في صفة القيامة (٢٥١٦) وقال: «حسن صحيح».

بك»^(١). وفي الدعاء الذي دعا به النبي ﷺ ؛ لما فعل به أهل الطائف ما فعلوا: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي، وهواني على الناس، أنت رب المستضعفين وأنت ربي. اللهم إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني، أم إلى عدو ملكته أمري، إن لم يكن بك غضب على فلا أبالي، غير أن عافيتك أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت به الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، أن ينزل بي سخطك، أو يحل علي غضبك، لك العتبى حتى ترضى، فلا حول ولا قوة إلا بك - وفي بعض الروايات - ولا حول ولا قوة إلا بك»^(٢).

وكلما قوى طمع العبد في فضل الله ورحمته، ورجائه لقضاء حاجته، ودفع ضرورته قويت عبوديته له وحرية مما سواه، فكما أن طمعه في / المخلوق يوجب عبوديته له، فيأسه منه يوجب غنى قلبه عنه. كما قيل: استغن عمن شئت تكن نظيره، وأفضل على من شئت تكن أميره، واحتج إلى من شئت تكن أسيره. فكذلك طمع العبد في ربه ورجاؤه له يوجب عبوديته له، وإعراض قلبه عن الطلب من غير الله، والرجاء له يوجب انصراف قلبه عن العبودية لله، لاسيما من كان يرجو المخلوق ولا يرجو الخالق، بحيث يكون قلبه معتمداً إما على رئاسته وجنوده وأتباعه ومماليكه، وإما على أهله وأصدقائه، وإما على أمواله وذخائره، وإما على ساداته وكبرائه، كمالكه وملكه، وشيخه ومخدومه وغيرهم، ممن هو قد مات أو يموت. قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٨].

وكل من علق قلبه بالمخلوقات أن ينصروه، أو يرزقوه، أو أن يهدوه خضع قلبه لهم، وصار فيه من العبودية لهم بقدر ذلك، وإن كان في الظاهر أميراً لهم مديراً لهم متصرفاً بهم، فالعاقل ينظر إلى الحقائق لا إلى الظواهر، فالرجل إذا تعلق قلبه بامرأة ولو كانت مباحة له يبقى قلبه أسيراً لها، تحكم فيه وتتصرف بما تريد، وهو في الظاهر سيدها؛ لأنه زوجها. وفي الحقيقة هو أسيرها ومملوكها لا سيما إذا درت بفقره إليها، وعشقه لها، وأنه لا يعتاض عنها غيرها، فإنها حينئذ تحكم فيه بحكم السيد القاهر الظالم في عبده المقهور، الذي لا يستطيع الخلاص / منه، بل أعظم، فإن أسر القلب أعظم من أسر البدن، واستعباد القلب أعظم من استعباد البدن، فإن من استعبد بدنه واسترق لا يبالي، إذا كان قلبه مستريحاً من ذلك مطمئناً، بل يمكنه الاحتياص في الخلاص. وأما إذا كان القلب الذي هو الملك رقيقاً مستعبداً، متيمناً لغير الله فهذا هو الذل، والأسر المحض، والعبودية لما

(١) الطبراني في الصغير ١/ ١٢٢، وقال الهيثمي في المجمع ١٨٦/ ١٠: «رواه الطبراني في الأوسط والصغير، وفيه من لم أعرفه». عن عبد الله بن مسعود.

(٢) ذكره الهيثمي في المجمع ٣٨/ ٦ وقال: «رواه الطبراني وفيه ابن إسحاق، وهو مدلس ثقة، وبقي رجاله ثقات»، وكثر العمال (٣٦١٣) وعزه للطبراني، عن عبد الله بن جعفر.

استعبد القلب .

وعبودية القلب وأسرته هي التي يترتب عليها الثواب والعقاب، فإن المسلم لو أسره كافر، أو استرقه فاجر بغير حق لم يضره ذلك إذا كان قائماً بما يقدر عليه من الواجبات، ومن استعبد بحق، إذا أدى حق الله وحق مواليه له أجران، ولو أكره على التكلم بالكفر فتكلم به وقلبه مطمئن بالإيمان، لم يضره ذلك، وأما من استعبد قلبه، فصار عبداً لغير الله، فهذا يضره ذلك، ولو كان في الظاهر ملك الناس .

فالحرية حرية القلب، والعبودية عبودية القلب، كما أن الغنى غنى النفس، قال النبي ﷺ: «ليس الغنى عن كثرة العرض، وإنما الغنى غنى النفس»^(١)، وهذا لعمرى إذا كان قد استعبد قلبه صورة مباحة، فأما من استعبد قلبه صورة محرمة، امرأة أو صبي، فهذا هو العذاب الذي لا يدان فيه . وهؤلاء من أعظم الناس عذاباً وأقلهم ثواباً، فإن العاشق لصورة إذا بقى قلبه متعلقاً بها، مستعبداً لها اجتمع له من / أنواع الشر والفساد، ما لا يحصى إلا رب العباد ، ولو سلم من فعل الفاحشة الكبرى، فدوام تعلق القلب بها بلا فعل الفاحشة أشد ضرراً عليه، ممن يفعل ذنباً ثم يتوب منه ويحول أثره من قلبه، وهؤلاء يشبهون بالسكارى والمجانين . كما قيل :

١٠ / ١٨٧

سكران سكر هوى وسكر مدامة ومتى إفاقة من به سكران

وقيل :

قالوا جنتت بمن تهوى فقلت لهم العشق أعظم مما بالمجانين

العشق لا يستفيق الدهر صاحبه وإنما يصرع المجنون في الحين

ومن أعظم أسباب هذا البلاء: إعراض القلب عن الله، فإن القلب إذا ذاق طعم عبادة الله، والإخلاص له لم يكن عنده شيء قط أحلى من ذلك، ولا ألد ولا أطيب ، والإنسان لا يترك محبوباً إلا بمحجوب آخر يكون أحب إليه منه، أو خوفاً من مكروهه، فالحب الفاسد إنما ينصرف القلب عنه بالحب الصالح، أو بالخوف من الضرر .

/ قال - تعالى - في حق يوسف: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤] . فالله يصرف عن عبده ما يسوؤه من الميل إلى الصور والتعلق بها، ويصرف عنه الفحشاء بإخلاصه لله .

١٠ / ١٨٨

ولهذا يكون قبل أن يذوق حلاوة العبودية لله والإخلاص له ، تغلبه نفسه على اتباع هواها ، فإذا ذاق طعم الإخلاص وقوى في قلبه انقهر له هواه بلا علاج . قال تعالى :

(١) البخاري في الرقاق (٦٤٤٦) ، ومسلم في الزكاة (١٠٥١ / ١٢٠) .

﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، فإن الصلاة فيها دفع للمكروه، وهو الفحشاء والمنكر، وفيها تحصيل المحبوب، وهو ذكر الله، وحصول هذا المحبوب أكبر من دفع المكروه، فإن ذكر الله عبادة لله، وعبادة القلب لله مقصودة لذاتها. وأما اندفاع الشر عنه، فهو مقصود لغيره على سبيل التبع.

والقلب خلق يحب الحق، ويريده، ويطلبه. فلما عرضت له إرادة الشر طلب دفع ذلك، فإنه يفسد القلب، كما يفسد الزرع، بما ينبت فيه من الدغل؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا . وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ [الشمس: ٩، ١٠]، وقال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى . وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾ [الأعلى: ١٤، ١٥]، وقال: ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ ﴾ [النور: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَّى مِنْكُمْ مَنْ أَحَدٌ أَبَدًا ﴾ [النور: ٢١]، فجعل - سبحانه - غض البصر، وحفظ الفرج هو أزكى / للنفس، وبين أن ترك الفواحش من زكاة النفوس، وزكاة النفوس تتضمن ١٠ / ١٨٩ زوال جميع الشرور من الفواحش، والظلم، والشرك، والكذب، وغير ذلك.

وكذلك طالب الرئاسة، والعلو في الأرض قلبه رقيق لمن يعينه عليها، ولو كان في الظاهر مقدمهم والمطاع فيهم، فهو في الحقيقة يرجوهم ويخافهم فيبذل لهم الأموال والولايات ويعفو عنهم ليطيعوه، ويعينوه، فهو في الظاهر رئيس مطاع، وفي الحقيقة عبد مطيع لهم، والتحقيق أن كليهما فيه عبودية للآخر، وكلاهما تارك لحقيقة عبادة الله، وإذا كان تعاونهما على العلو في الأرض بغير الحق، كانا بمنزلة المتعاونين على الفاحشة أو قطع الطريق، فكل واحد من الشخصين لهواه الذي استعبده واسترقه يستعبده الآخر.

وهكذا - أيضاً - طالب المال؛ فإن ذلك يستعبده ويسترقه، وهذه الأمور نوعان:

منها: ما يحتاج العبد إليه، كما يحتاج إليه من طعامه وشرابه ومسكنه ومنكحه، ونحو ذلك. فهذا يطلبه من الله ويرغب إليه فيه، فيكون المال عنده يستعمله في حاجته بمنزلة حماره الذي يركبه، وبساطه الذي يجلس عليه، بل بمنزلة الكنيف الذي يقضي فيه حاجته من غير أن يستعبده، فيكون هلوياً / إذا مسه الشر جزوعاً، وإذا مسه الخير منوعاً. ١٠ / ١٩٠

ومنها: ما لا يحتاج العبد إليه، فهذه لا ينبغي له أن يعلق قلبه بها، فإذا تعلق قلبه بها صار مستعبداً لها، وربما صار معتمداً على غير الله، فلا يبقى معه حقيقة العبادة لله، ولا حقيقة التوكل عليه، بل فيه شعبة من العبادة لغير الله، وشعبة من التوكل على غير الله، وهذا من أحق الناس بقوله ﷺ: « تعس عبد الدرهم، تعس عبد الدينار، تعس

عبد القطيفة، تعس عبد الحميصه^(١)، وهذا هو عبد هذه الأمور، فلو طلبها من الله، فإن الله إذا أعطاه إياها رضي، وإذا منعه إياها سخط، وإنما عبد الله من يرضيه ما يرضي الله، ويسخطه ما يسخط الله، ويحب ما أحبه الله ورسوله، ويبغض ما أبغضه الله ورسوله، ويوالي أولياء الله، ويعادي أعداء الله - تعالى - وهذا هو الذي استكمل الإيمان. كما في الحديث: «من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله فقد استكمل الإيمان»^(٢) وقال: «أوثق عرى الإيمان: الحب في الله، والبغض في الله»^(٣).

وفي الصحيح عنه ﷺ: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه، كما يكره أن يلتقى في النار»^(٤) فهذا وافق ربه فيما يحبه وما / يكرهه فكان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأحب المخلوق لله لا لغرض آخر، فكان هذا من تمام حبه لله، فإن محبة محبوب المحبوب من تمام محبة المحبوب، فإذا أحب أنبياء الله، وأولياء الله؛ لأجل قيامهم بمحبوبات الحق لا لشيء آخر، فقد أحبه الله لا لغيره، وقد قال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

١٠/١٩١

ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] ، فإن الرسول يأمر بما يحب الله، وينهى عما يبغضه الله، ويفعل ما يحبه الله، ويخير بما يحب الله التصديق به، فمن كان محباً لله لزم أن يتبع الرسول، فيصدقه فيما أخبر، ويطيعه فيما أمر، ويتأسى به فيما فعل، ومن فعل هذا، فقد فعل ما يحبه الله. فيحبه الله، فجعل الله لأهل محبته علامتين: اتباع الرسول، والجهاد في سبيله.

وذلك؛ لأن الجهاد حقيقته الاجتهاد في حصول ما يحبه الله من الإيمان، والعمل الصالح، ومن دفع ما يبغضه الله من الكفر والفسوق والعصيان. وقد قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ [التوبة: ٢٤]، فتوعد من كان أهله وماله، أحب إليه من الله ورسوله والجهاد في سبيله بهذا الوعيد. بل قد ثبت عنه في الصحيح، أنه قال: «والذي نفسي بيده لا يؤمن / أحدكم حتى أكون أحب إليه، من ولده، ووالده، والناس أجمعين»^(٥)، وفي الصحيح أن عمر

١٠/١٩٢

(١) سبق تخريجه ص ١٠٨.

(٢) الترمذي في صفة القيامة (٢٥٢١) وقال: «حديث حسن» وأحمد ٤٣٨/٣.

(٣) سبق تخريجه ص ٥٢.

(٤) سبق تخريجه ص ٣٢.

(٥) سبق تخريجه ص ٤٢.

ابن الخطاب قال له : يا رسول الله!، والله لأنت أحب إلى من كل شيء إلا من نفسي، فقال : «لا يا عمر! حتى أكون أحب إليك من نفسك». فقال : فوالله، لأنت أحب إلى من نفسي، فقال : «الآن يا عمر»^(١).

فحقيقة المحبة لا تتم إلا بموالاتة المحبوب، وهو موافقته في حب ما يحب، وبغض ما يبغض، والله يحب الإيمان والتقوى، ويبغض الكفر والفسوق والعصيان. ومعلوم أن الحب يحرك إرادة القلب، فكلما قويت المحبة في القلب طلب القلب فعل المحبوبات، فإذا كانت المحبة تامة استلزمت إرادة جازمة في حصول المحبوبات. فإذا كان العبد قادراً عليها حصلها. وإن كان عاجزاً عنها ففعل ما يقدر عليه من ذلك كان له كأجر الفاعل كما قال النبي ﷺ : «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه، من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الوزر مثل أوزار من اتبعه من غير أن ينقص من أوزارهم شيئاً»^(٢). وقال : «إن بالمدينة لرجالاً ما سرتهم مسيراً ولا قطعتم وادياً، إلا كانوا معكم». قالوا : وهم بالمدينة. قال : «وهم بالمدينة، حبسهم العذر»^(٣).

والجهاد، هو بذل الوسع، وهو القدرة في حصول محبوب الحق، / ودفع ما يكرهه الحق، فإذا ترك العبد ما يقدر عليه من الجهاد، كان دليلاً على ضعف محبة الله ورسوله في قلبه، ومعلوم أن المحبوبات لا تنال غالباً إلا باحتمال المكروهات، سواء كانت محبة صالحة أو فاسدة، فالمحبون للمال والرياسة والصور، لا ينالون مطالبهم إلا بضرر يلحقهم في الدنيا مع ما يصيبهم من الضرر في الدنيا والآخرة، فالمحب لله ورسوله إذا لم يحتمل ما يرى ذو الرأي من المحبين لغير الله مما يحتملون في حصول محبوبهم دل ذلك على ضعف محبتهم لله إذا كان ما يسلكه أولئك هو الطريق الذي يشير به العقل.

ومن المعلوم أن المؤمن أشد حباً لله. كما قال تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، نعم! قد يسلك المحب لضعف عقله وفساد تصوره طريقاً لا يحصل بها المطلوب، فمثل هذه الطريق لا تحمد إذا كانت المحبة صالحة محمودة، فكيف إذا كانت المحبة فاسدة، والطريق غير موصل! كما يفعل المتهورون في طلب المال والرياسة والصور في حب أمور توجب لهم ضرراً، ولا تحصل لهم مطلوباً، وإنما المقصود الطرق التي يسلكها العقل؛ لحصول مطلوبه.

وإذا تبين هذا، فكلما ازداد القلب حباً لله ازداد له عبودية، وكلما ازداد له عبودية

(١) سبق تخريجه ص ٤٢.

(٢) مسلم في العلم (١٦/٢٦٧٤) والترمذي في العلم (٢٦٧٤) وقال : «حسن صحيح» وابن ماجه في المقدمة (٢٠٦).

(٣) البخاري في المغازي (٤٤٢٣) ومسلم في الإمامة (١٥٩/١٩١١) وأبو داود في الجهاد (٢٥٠٨).

ازداد له حباً وحرية عما سواه، والقلب فقير بالذات / إلى الله من وجهين : من جهة العبادة، وهي العلة الغائية، ومن جهة الاستعانة والتوكل ، وهي العلة الفاعلية، فالقلب لا يصلح، ولا يفلح، ولا يلتذ، ولا يسر، ولا يطيب، ولا يسكن، ولا يطمئن، إلا بعبادة ربه، وحبه والإنابة إليه. ولو حصل له كل ما يلتذ به من المخلوقات لم يطمئن، ولم يسكن إذ فيه فقر ذاتي إلى ربه، ومن حيث هو معبوده ومحبوه ومطلوبه، وبذلك يحصل له الفرح والسرور واللذة والنعمة والسكون والطمأنينة.

وهذا لا يحصل له إلا بإعانة الله له، لا يقدر على تحصيل ذلك له إلا الله، فهو دائماً مفتقر إلى حقيقة «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» [الفاتحة: ٥]، فإنه لو أعين على حصول ما يحبه ويطلبه ويستشهيه ويريده، ولم يحصل له عبادته لله بحيث يكون هو غاية مراده ونهاية مقصوده وهو المحبوب له بالقصد الأول، وكل ما سواه إنما يحبه لأجله، لا يحب شيئاً لذاته إلا الله، فمتى لم يحصل له هذا لم يكن قد حقق حقيقة، لا إله إلا الله ، ولا حقق التوحيد والعبودية والمحبة، وكان فيه من النقص والعيب، بل من الألم والحسرة والعذاب بحسب ذلك.

ولو سعى في هذا المطلوب، ولم يكن مستعيناً بالله متوكلاً عليه مفتقراً إليه في حصوله لم يحصل له، فإنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فهو مفتقر إلى الله من حيث هو المطلوب المحبوب المراد المعبود، ومن / حيث هو المسؤول المستعان به المتوكل عليه، فهو إلهه لا إله له غيره، وهو ربه لا رب له سواه.

ولا تتم عبوديته لله إلا بهذين ، فمتى كان يحب غير الله، لذاته، أو يلتفت إلى غير الله أنه يعينه كان عبداً لما أحبه، وعبداً لما رجاه بحسب حبه له ورجائه إياه. وإذا لم يحب لذاته إلا الله، وكلما أحب سواه فإنما أحبه له، ولم يرج قط شيئاً إلا الله، وإذا فعل ما فعل من الأسباب، أو حصل ما حصل منها كان مشاهداً أن الله هو الذي خلقها وقدرها، وأن كل ما في السموات والأرض فالله ربه ومليكه وخالقه، وهو مفتقر إليه كان قد حصل له من تمام عبوديته لله بحسب ما قسم له من ذلك.

والناس في هذا على درجات متفاوتة لا يحصى طرفيها إلا الله.

فأكمل الخلق، وأفضلهم، وأعلاهم، وأقربهم إلى الله، وأقواهم، وأهداهم، أتمهم عبودية لله من هذا الوجه.

وهذا هو حقيقة دين الإسلام الذي أرسل به رسله، وأنزل به كتبه وهو أن يستسلم العبد لله لا لغيره، فالمستسلم له ولغيره مشرك ، والممتنع عن الاستسلام له مستكبر ، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ : « أن الجنة لا يدخلها من في قلبه مثقال ذرة من

كبر، كما أن / النار لا يدخلها من في قلبه مثقال ذرة من إيمان» (١)، فجعل الكبر مقابلاً ١٠/١٩٦ للإيمان، فإن الكبر ينافي حقيقة العبودية، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «يقول الله العظمة إزاري، والكبرياء ردائي، فمن نازعني واحداً منهما عذبت» (٢) فالعظمة، والكبرياء من خصائص الربوبية، والكبرياء أعلى من العظمة؛ ولهذا جعلها بمنزلة الرداء، كما جعل العظمة بمنزلة الإزار.

ولهذا كان شعار الصلوات والأذان والأعياد، هو التكبير، وكان مستحباً في الأمكنة العالية، كالصفا والمروة، وإذا علا الإنسان شرفاً أو ركب دابة ونحو ذلك، وبه يطفأ الحريق وإن عظم، وعند الأذان يهرب الشيطان. قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

وكل من استكبر عن عبادة الله لا بد أن يعبد غيره، فإن الإنسان حساس يتحرك بالإرادة. وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «أصدق الأسماء حارث وهمام» (٣) فالحارث الكاسب الفاعل، والهمام فعال من الهم، والهم أول الإرادة، فالإنسان له إرادة دائماً، وكل إرادة، فلا بد لها من مراد تنتهي إليه، فلا بد لكل عبد من مراد محبوب هو منتهى حبه وإرادته، فمن لم يكن الله معبوده ومنتهى حبه، وإرادته بل استكبر عن ذلك فلا بد أن يكون له مراد محبوب / يستعبده غير الله، فيكون عبداً لذلك المراد المحبوب، إما المال، وإما الجاه، وإما الصور، وإما ما يتخذه إلهاً من دون الله، كالشمس، والقمر، والكواكب، والأوثان، وقبور الأنبياء، والصالحين، أو من الملائكة، والأنبياء الذين يتخذهم أرباباً، أو غير ذلك مما عبد من دون الله.

وإذا كان عبداً لغير الله يكون مشركاً، وكل مستكبر، فهو مشرك؛ ولهذا كان فرعون من أعظم الخلق استكباراً عن عبادة الله، وكان مشركاً. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾، إلى قوله: ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ إلى قوله: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٌ﴾ [غافر: ٢٣-٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤].

(١) البخاري في الإيمان (٢٢) ومسلم في الإيمان (١٤٨/٩١).

(٢) مسلم في البر والصلة (١٣٦/٢٦٢٠) وأبو داود في اللباس (٤٠٩٠).

(٣) سبق تخريجه ص ٤١.

(٤) في المطبوعة: «فانظر كيف كان عاقبة»، والصواب ما أثبتناه.

ومثل هذا في القرآن كثير .

وقد وصف فرعون بالشرك في قوله : ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذُرْكُمُ الْأَهْلِيَّاتُ ﴾ [الأعراف: ١٢٧] .

١٠ / ١٩٨

/ بل الاستقراء يدل على أنه كلما كان الرجل أعظم استكباراً عن عبادة الله كان أعظم إشراكاً بالله؛ لأنه كلما استكبر عن عبادة الله، ازداد فقره وحاجته إلى المراء المحبب الذي هو المقصود، مقصود القلب بالمقصء الأول، فيكون مشركاً بما استعبده من ذلك .

ولن يستغنى القلب عن جميع المخلوقات إلا بأن يكون الله هو مولاه الذي لا يعبد إلا إياه، ولا يستعين إلا به، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يفرح إلا بما يحبه ويرضاه، ولا يكره إلا ما يبغضه الرب ويكرهه، ولا يوالي إلا من والاه الله، ولا يعادي إلا من عاداه الله، ولا يحب إلا الله، ولا يبغض شيئاً إلا لله، ولا يعطي إلا لله، ولا يمنع إلا لله . فكلما قوى إخلاص دينه لله كملت عبوديته، واستغناؤه عن المخلوقات، وبكمال عبوديته لله ببرئه من الكبر والشرك .

والشرك غالب على النصارى ، والكبر غالب على اليهود، قال - تعالى - في النصارى : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة : ٣١] ، وقال في اليهود : ﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِّقُوا بَيْنَهُمَا وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمَا ﴾ [البقرة: ٨٧] ، وقال تعالى : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا / كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾ [الأعراف: ١٤٦] .

١٠ / ١٩٩

ولما كان الكبر مستلزماً للشرك، والشرك ضد الإسلام، وهو الذنب الذي لا يغفره الله، قال تعالى : ﴿ إِنْ اللَّهُ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٤٨] ، وقال : ﴿ إِنْ اللَّهُ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ [النساء: ١١٦] ، كان الأنبياء جميعهم مبعوثين بدين الإسلام، فهو الدين الذي لا يقبل الله غيره، لا من الأولين ولا من الآخرين . قال نوح : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس: ٧٢] ، وقال في حق إبراهيم : ﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مِنْ سَفَاهَةٍ نَفْسِهِ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ . إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ

أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣٠﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٠-١٣٢] ،
 وقال يوسف: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١] ، وقال موسى: ﴿يَا قَوْمُ
 إِن كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ . فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [يونس: ٨٤، ٨٥] ،
 وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾
 [المائدة: ٤٤] ، وقالت بلقيس: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾
 [النمل: ٤٤] ، وقال: / ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرِسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا
 مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة: ١١١] ، وقال: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩] ، وقال: ﴿وَمَنْ
 يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥] .

وقال تعالى: ﴿أَغْيَرِ دِينَ اللَّهِ يَغْنُونَ لَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل
 عمران: ٨٣] ، فذكر إسلام الكائنات طوعاً وكرهاً؛ لأن المخلوقات جميعها متعبدة له التعبد
 العام، سواء أقر المقر بذلك أو أنكره، وهم مدينون مدبرون؛ فهم مسلمون له طوعاً
 وكرهاً، ليس لأحد من المخلوقات خروج عما شاء وقدره وقضاه، ولا حول ولا قوة إلا
 به، وهو رب العالمين، ومليكنهم يصرفهم كيف يشاء، وهو خالقهم كلهم وبارئهم
 ومصورهم، وكل ما سواه فهو مربوب، مصنوع، مفطور، فقير، محتاج، معبد، مقهور،
 وهو الواحد القهار، الخالق البارئ المصور .

وهو وإن كان قد خلق ما خلقه بأسباب ، فهو خالق السبب والمقدر له، وهو مفتقر
 إليه كافتقار هذا، وليس في المخلوقات سبب مستقل بفعل ولا دفع ضرر، بل كل ما هو
 سبب فهو محتاج إلى سبب آخر يعاونه، وإلى ما يدفع عنه الضد الذي يعارضه، ويمانهه .

وهو - سبحانه - وحده الغني عن كل ما سواه ، ليس له شريك يعاونه ولا ضد يناوئه
 ويعارضه . قال تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ
 كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِيَ بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾
 [الزمر: ٣٨] ، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ
 فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٧] ، وقال تعالى عن الخليل: ﴿يَا قَوْمُ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا
 تَشْرِكُونَ . إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ .
 وَحَاجَةُ قَوْمِهِ قَالَ أَتَحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾
 إلى قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾
 [الأنعام: ٧٨-٨٢] .

وفي الصحيحين عن ابن مسعود - رضي الله عنه - : إن هذه الآية لما نزلت شق ذلك على أصحاب النبي ﷺ وقالوا: يا رسول الله، أين لم يلبس إيمانه بظلم؟ فقال: «إنما هو الشرك، ألم تسمعوا إلى قول العبد الصالح: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾»^(١) [لقمان: ١٣].

وإبراهيم الخليل إمام الحنفاء المخلصين، حيث بعث وقد طبق الأرض دين المشركين، قال الله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]، فبين أن عهده بالإمامة لا يتناول الظالم، فلم يأمر الله - سبحانه - أن يكون الظالم إمامًا، وأعظم الظلم الشرك.

/ وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠]، والأمة: هو معلم الخير الذي يؤتم به، كما أن القدوة الذي يقتدى به.

١٠/٢٠٢

والله - تعالى - جعل في ذريته النبوة والكتاب، وإنما بعث الأنبياء بعده بملته قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ﴾ إلى قوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٥، ١٣٦].

وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ: إن إبراهيم خير البرية^(٢)، فهو أفضل الأنبياء بعد النبي ﷺ وهو خليل الله تعالى. وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ من غير وجه أنه قال: «إن الله اتخذني خليلًا كما اتخذ إبراهيم خليلًا»^(٣)، وقال: «لو كنت متخذًا من أهل الأرض خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا، ولكن صاحبكم خليل الله»^(٤) - يعني نفسه - وقال: «لا يبقين / في المسجد خوخة إلا سُدَّتْ إلا خوخة أبي بكر»^(٥)، وقال: «إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك»^(٦) وكل هذا في الصحيح. وفيه أنه قال: ذلك قبل موته بأيام، وذلك من تمام رسالته.

١٠/٢٠٣

(١) البخاري في المناقب (٣٧٣٥) والنسائي في الكبرى في المناقب (٨١٨٣، ٨١٨٤)، كلاهما عن أسامة بن زيد

(٢) أبو داود في السنة (٤٦٧٢)، وأحمد ١٧٨/٣، كلاهما عن أنس.

(٣) (٤، ٣) سبق تخريجهما ص ٤٤.

(٥) البخاري في مناقب الأنصار (٣٩٠٤).

(٦) مسلم في المساجد (٢٣/٥٣٢).

فإن في ذلك تحقيق تمام مخالته لله ، التي أصلها محبة الله - تعالى - للعبد ، ومحبة العبد لله خلافاً للجهمية .

وفي ذلك تحقيق توحيد الله ، وأن لا يعبدوا إلا إياه ، ورد على أشباه المشركين .
وفيه رد على الرافضة الذين يبخسون الصديق حقه ، وهم أعظم المنتسبين إلى القبلة إشراكا بالبشر .

والخلة : هي كمال المحبة المستلزمة من العبد كمال العبودية لله ، ومن الرب - سبحانه - كمال الربوبية لعباده الذين يحبهم ويحبونه ، ولفظ العبودية يتضمن كمال الذل ، وكمال الحب ، فإنهم يقولون : قلب مقيم إذا كان متعبداً للمحبوب ، والمقيم المتعبد ، وتيم الله عبده ، وهذا على الكمال حصل لإبراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم ؛ ولهذا لم يكن له من أهل الأرض خليل ، إذ الخلة لا تحتل الشركة فإنه كما قيل في المعنى :

١٠ / ٢٠٤ / قد تخللت مسلك الروح مني وبذا سمي الخليل خليلاً

بخلاف أصل الحب ، فإنه ﷺ قد قال في الحديث الصحيح في الحسن وأسماء : «اللهم إني أحبهما فأحبهما ، وأحب من يحبهما»^(١) ، وسأله عمرو بن العاص أي الناس أحب إليك؟ قال : «عائشة» . قال : فمن الرجال؟ قال : «أبوها»^(٢) ، وقال لعلى - رضي الله عنه - : «لأعطين الراية رجلاً يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله»^(٣) وأمثال ذلك كثير .

وقد أخبر - تعالى - أنه يحب المتقين ، ويحب المحسنين ، ويحب المقسطين ، ويحب التوايين ، ويحب المتطهرين ، ويحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص ، وقال : «فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ» [المائدة : ٥٤] ، فقد أخبر بمحبته لعباده المؤمنين ، و محبة المؤمنين له ، حتى قال : «وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ» [البقرة : ١٦٥] .

وأما الخلة فخاصة . وقول بعض الناس : إن محمداً حبيب الله ، وإبراهيم خليل الله ، وظنه أن المحبة فوق الخلة قول ضعيف ، فإن محمداً أيضاً خليل الله كما ثبت ذلك في الأحاديث الصحيحة المستفيضة ، وما يروي : «إن العباس يحشر بين حبيب و خليل»^(٤)

(١) البخاري في المناقب (٣٧٣٥) ، والنسائي في الكبرى في المناقب (٨١٨٣ ، ٨١٨٤) ، كلاهما عن أسامة بن زيد .

(٢) البخاري في فضائل الصحابة (٣٦٦٢) . (٣) البخاري في فضائل الصحابة (٣٧٠٢) .

(٤) ابن ماجه في المقدمة (١٤١) ، وفي الزوائد : «إسناده ضعيف ، لاتفاقهم على ضعف عبد الوهاب . بل قال فيه أبو داود : يضع الحديث . وقال الحاكم : روى أحاديث موضوعه . وشيخه إسماعيل اختلط بأخرة . وقال ابن رجب : انفرد به المصنف وهو موضوع . فإنه من بلايا عبد الوهاب . وقال فيه أبو داود : «ضعيف الحديث» . وذكره الشوكاني في الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعه (١٤٤) ص ٤٠٢ ، ٤٠٣ وقال : « رواه العقيلي عن ابن عمرو مرفوعاً ، وهو موضوع » ، وقال ابن عدي : « ليس لهذا الحديث أصل عن ثقة ، وقد أخرجه ابن ماجه » ، وقال الألباني : « موضوع » .

وأمثال ذلك، فأحاديث موضوعة لا تصلح أن يعتمد عليها.

١٠/٢٠٥

/ وقد قدمنا أن من محبة الله - تعالى - محبة ما أحب ، كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقي في النار»^(١). أخبر النبي ﷺ أن هذه الثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان؛ لأن وجد الحلاوة بالشئ يتبع المحبة له، فمن أحب شيئاً أو اشتهاه إذا حصل له مراده فإنه يجد الحلاوة واللذة والسرور بذلك، واللذة أمر يحصل عقيب إدراك الملائم الذي هو المحبوب أو المشتهى.

ومن قال: إن اللذة إدراك الملائم، كما يقوله من يقوله من المتفلسفة والأطباء، فقد غلط في ذلك غلطاً بيئاً، فإن الإدراك يتوسط بين المحبة واللذة، فإن الإنسان مثلاً يشتهي الطعام فإذا أكله حصل له عقيب ذلك اللذة، فاللذة تتبع النظر إلى الشئ ، فإذا نظر إليه التذ، فاللذة تتبع النظر ليست نفس النظر، وليست هي رؤية الشئ ؛ بل تحصل عقيب رؤيته، وقال تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١]، وهكذا جميع ما يحصل للنفس من اللذات، والآلام من فرح وحزن ونحو ذلك، يحصل بالشعور بالمحبيب، أو الشعور بالمكروه، وليس نفس الشعور هو الفرح ولا الحزن. فحلاوة الإيمان المتضمنة من اللذة به / والفرح ما يجده المؤمن الواجد من حلاوة الإيمان، تتبع كمال محبة العبد لله، وذلك بثلاثة أمور: تكميل هذه المحبة، وتفريغها ، ودفع ضدها.

١٠/٢٠٦

فتكميلها: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، فإن محبة الله ورسوله لا يكتفي فيها بأصل الحب ، بل لابد أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما كما تقدم. وتفريغها: أن يحب المرء لا يحبه إلا لله.

ودفع ضدها: أن يكره ضد الإيمان أعظم من كراهته الإلقاء في النار، فإذا كانت محبة الرسول والمؤمنين من محبة الله، وكان رسول الله ﷺ يحب المؤمنين الذين يحبهم الله؛ لأنه أكمل الناس محبة لله، وأحقهم بأن يحب ما يحبه الله، ويبغض ما يبغضه الله، والخلعة ليس لغير الله فيها نصيب، بل قال: «لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً»^(٢) علم مزيد مرتبة الخلعة على مطلق المحبة.

(١) سبق تخريجه ص ٣٢.

(٢) سبق تخريجه ص ٤٤.

والمقصود هو أن الخلة والمحبة لله تحقيق عبوديته؛ وإنما يغلط من يغلط في هذه من حيث يتوهمون أن العبودية مجرد ذل / وخضوع فقط، لا محبة معه، أو أن المحبة فيها انبساط في الأهواء أو إدلال لا تحتمله الربوبية؛ ولهذا يذكر عن ذي النون أنهم تكلموا عنده في مسألة المحبة. فقال: أمسكوا عن هذه المسألة لا تسمعها النفوس فتدعيها. وكره من كره من أهل المعرفة، والعلم مجالسة أقوام يكثرون الكلام في المحبة بلا خشية، وقال من قال من السلف: من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن موحد؛ ولهذا وجد في المستأخرين من انبسط في دعوى المحبة حتى أخرجه ذلك إلى نوع من الرعونة، والدعوى التي تنافي العبودية، وتدخل العبد في نوع من الربوبية التي لا تصلح إلا لله، ويدعي أحدهم دعاوى تتجاوز حدود الأنبياء والمرسلين أو يطلبون من الله، ما لا يصلح - بكل وجه - إلا لله لا يصلح للأنبياء والمرسلين.

وهذا باب وقع فيه كثير من الشيوخ.

وسببه ضعف تحقيق العبودية التي بيتهها الرسل، وحررها الأمر والنهي الذي جاؤوا به، بل ضعف العقل الذي به يعرف العبد حقيقته، وإذا ضعف العقل وقل العلم بالدين وفي النفس محبة، انبسطت النفس بحمقها في ذلك، كما ينسبط الإنسان في محبة الإنسان مع حمقه وجهله، ويقول: أنا محب فلا أؤاخذ بما أفعله من أنواع يكون فيها عدوان وجهل، فهذا / عين الضلال، وهو شبيه بقول اليهود والنصارى: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ قال الله تعالى: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرْ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ [المائدة: ١٨]، فإن تعذيبه لهم بذنوبهم يقتضي أنهم غير محبوبين ولا منسوبين إليه بنسبة البنوة، بل يقتضي أنهم مربوبون مخلوقون.

فمن كان الله يحبه استعمله فيما يحبه محبوبه، لا يفعل ما يبغضه الحق ويسخطه من الكفر والفسوق والعصيان، ومن فعل الكبائر وأصر عليها، ولم يتب منها، فإن الله يبغض منه ذلك، كما يحب منه ما يفعله من الخير، إذ حبه للعبد بحسب إيمانه وتقواه، ومن ظن أن الذنوب، لا تضره؛ لكون الله يحبه مع إصراره عليها، كان بمنزلة من زعم أن تناول السم لا يضره مع مداومته عليه، وعدم تناوئه منه بصحة مزاجه.

ولو تدبر الأحق ما قص الله في كتابه من قصص أنبيائه، وما جرى لهم من التوبة والاستغفار، وما أصيبوا به من أنواع البلاء الذي فيه تمحيص لهم، وتطهير بحسب أحوالهم، علم بعض ضرر الذنوب بأصحابها، ولو كان أرفع الناس مقاماً، فإن المحب

للمخلوق إذا لم يكن عارفاً بمصلحته ولا مريداً لها، بل يعمل بمقتضى الحب - وإن كان جهلاً وظلماً - كان ذلك سبباً لبغض المحبوب له ونفوره عنه، بل لعقوبته .

١٠ / ٢٠٩ / وكثير من السالكين سلكوا في دعوى حب الله أنواعاً من أمور الجهل بالدين، إما من تعدى حدود الله، وإما من تضييع حقوق الله، وإما من ادعاء الدعاوى الباطلة التي لا حقيقة لها، كقول بعضهم: أي مريد لي ترك في النار فأنا منه برىء ، فقال الآخر: أي مريد لي ترك أحداً من المؤمنين يدخل النار فأنا منه برىء ، فالأول: جعل مريده يخرج كل من في النار، والثاني: جعل مريده يمنع أهل الكبائر من دخول النار. ويقول بعضهم: إذا كان يوم القيامة نصبت خيمتي على جهنم حتى لا يدخلها أحد، وأمثال ذلك من الأقوال التي تؤثر عن بعض المشايخ المشهورين، وهي إما كذب عليهم، وإما غلط منهم ، ومثل هذا قد يصدر في حال سكر، وغلبة ، وفناء يسقط فيها تمييز الإنسان ، أو يضعف حتى لا يدري ما قال ، والسكر هو لذة مع عدم تمييز؛ ولهذا كان بين هؤلاء من إذا صحا استغفر من ذلك الكلام.

والذين توسعوا من الشيوخ في سماع القصائد المتضمنة للحب، والشوق، واللوم، والعذل والغرام كان هذا أصل مقصدهم. ولهذا أنزل الله للمحبة محنة يمتحن بها المحب فقال: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، فلا يكون محباً لله إلا من يتبع رسوله، وطاعة الرسول ومتابعته تحقيق العبودية.

١٠ / ٢١٠ / وكثير ممن يدعي المحبة يخرج عن شريعته وسنته، ويدعي من / الخيالات ما لا يتسع هذا الموضوع لذكره، حتى قد يظن أحدهم سقوط الأمر وتحليل الحرام له، وغير ذلك مما فيه مخالفة شريعة الرسول، وسنته، وطاعته، بل قد جعل محبة الله ومحبة رسوله الجهاد في سبيله، والجهاد يتضمن كمال محبة ما أمر الله به، وكمال بغض ما نهى الله عنه؛ ولهذا قال في صفة من يحبهم ويحبونه: ﴿أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٥٤].

ولهذا كانت محبة هذه الأمة لله أكمل من محبة من قبلها ، وعبوديتهم لله أكمل من عبودية من قبلهم، وأكمل هذه الأمة في ذلك أصحاب محمد ﷺ ، ومن كان بهم أشبه كان ذلك فيه أكمل، فأين هذا من قوم يدعون المحبة؟!

وفي كلام بعض الشيوخ: المحبة نار تحرق في القلب ما سوى مراد المحبوب، وأرادوا أن الكون كله قد أراد الله وجوده، فظنوا أن كمال المحبة أن يحب العبد كل شيء ، حتى الكفر والفسوق، والعصيان، ولا يمكن أحداً أن يحب كل موجود، بل يحب ما يلائمه

وينفعه، ويبغض ما ينافيه ويضره، ولكن استفادوا بهذا الضلال اتباع أهوائهم، فهم يحبون ما يهوونه كالصور، والرئاسة وفضول المال، والبدع المضلة، زاعمين أن هذا من محبة الله، ومن محبة الله بغض ما يبغضه الله ورسوله، وجهاد أهله بالنفس والمال.

١٠/٢١١ /وأصل ضلالهم: أن هذا القائل الذي قال: إن المحبة نار تحرق ما سوى مراد المحبوب قصد بمراد الله - تعالى - الإرادة الدينية الشرعية التي هي بمعنى محبته ورضاه، فكأنه قال تحرق من القلب ما سوى المحبوب لله، وهذا معنى صحيح، فإن من تمام الحب ألا يحب إلا ما يحبه الله، فإذا أحببت ما لا يحب كانت المحبة ناقصة، وأما قضاؤه وقدره فهو يبغضه ويكرهه ويسخطه وينهي عنه، فإن لم أوافق في بغضه، وكرهه، وسخطه لم أكن محباً له، بل محباً لما يبغضه. فاتباع الشريعة، والقيام بالجهاد من أعظم الفروق بين أهل محبة الله وأوليائه الذين يحبهم ويحبونه وبين من يدعي محبة الله ناظراً إلى عموم ربوبيته، أو متبعاً لبعض البدع المخالفة لشريعته، فإن دعوى هذه المحبة لله من جنس دعوى اليهود والنصارى المحبة لله، بل قد تكون دعوى هؤلاء شراً من دعوى اليهود والنصارى، لما فيهم من النفاق الذين هم به في الدرك الأسفل من النار، كما قد تكون دعوى اليهود والنصارى شراً من دعواهم، إذا لم يصلوا إلى مثل كفرهم، وفي التوراة والإنجيل من محبة الله ما هم متفوقون عليه، حتى إن ذلك عندهم أعظم وصايا الناموس.

١٠/٢١٢ ففي الإنجيل أن المسيح قال: «أعظم وصايا المسيح أن تحب الله بكل قلبك وعقلك ونفسك»، والنصارى يدعون قيامهم بهذه المحبة، وإن ما هم فيه من الزهد، والعبادة هو من ذلك، وهم برآء من محبة الله، إذا لم / يتبعوا ما أحبه، بل اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم، والله يبغض الكافرين ويمقتهم، ويلعنهم، وهو سبحانه يحب من يحبه، لا يمكن أن يكون العبد محباً لله، والله - تعالى - غير محب له، بل بقدر محبة العبد لربه يكون حب الله له، وإن كان جزاء الله لعبده أعظم، كما في الحديث الصحيح الإلهي عن الله - تعالى - أنه قال: «من تقرب إلى شبراً تقربت إليه ذراعاً، ومن تقرب إلى ذراعاً تقربت إليه باعاً، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة»^(١).

وقد أخبر - سبحانه - أنه يحب المتقين، والمحسنين والصابرين، ويحب التوايين، ويحب المتطهرين، بل هو يحب من فعل ما أمر به من واجب ومستحب، كما في الحديث الصحيح: «لا يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحبته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به» الحديث^(٢).

(١) البخاري في التوحيد (٧٥٣٦) ومسلم في الذكر والدعاء (٢٦٧٥ / ٢٠).

(٢) البخاري في الرقاق (٦٥٠٢) عن أبي هريرة.

وكثير من المخطئين الذين اتبعوا أسيافاً في الزهد والعبادة وقعوا في بعض ما وقع فيه النصارى ، من دعوى المحبة لله مع مخالفة شريعته ، وترك المجاهدة في سبيله ونحو ذلك ، ويتمسكون في الدين الذي يتقربون به إلى الله ، بنحو ما تمسك به النصارى من الكلام المشابه ، والحكايات التي لا يعرف صدق قائلها ، ولو صدق لم يكن قائلها معصوماً ، فيجعلون متبوعيهم شارعين لهم ديناً ، كما جعل النصارى قسيسيهم ، ورهبانهم شارعين / لهم ديناً ، ثم إنهم ينتقصون العبودية ويدعون أن الخاصة يتعدونها كما يدعى النصارى في المسيح ، ويثبتون للخاصة من المشاركة في الله من جنس ما تثبته النصارى في المسيح وأمه ، إلى أنواع آخر يطول شرحها في هذا الموضع .

١٠ / ٢١٣

وإنما دين الحق هو تحقيق العبودية لله بكل وجه ، وهو تحقيق محبة الله بكل درجة ، وبقدر تكميل العبودية تكمل محبة العبد لربه ، وتكمل محبة الرب لعبده ، وبقدر نقص هذا يكون نقص هذا ، وكلما كان في القلب حب لغير الله ، كانت فيه عبودية لغير الله بحسب ذلك ، وكلما كان فيه عبودية لغير الله كان فيه حب لغير الله بحسب ذلك ، وكل محبة لا تكون لله فهي باطلة ، وكل عمل لا يراى به وجه الله فهو باطل ، فالدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان لله ، ولا يكون لله إلا ما أحبه الله ورسوله ، وهو المشروع ، فكل عمل أريد به غير الله لم يكن لله ، وكل عمل لا يوافق شرع الله لم يكن لله ، بل لا يكون لله إلا ما جمع الوصفين ، أن يكون لله ، وأن يكون موافقاً لمحبة الله ورسوله ، وهو الواجب والمستحب ، كما قال : ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ١١٠] .

فلا بد من العمل الصالح ، وهو الواجب ، والمستحب ، ولا بد أن يكون خالصاً لوجه الله تعالى ، كما قال تعالى : ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة : ١١٢] ، وقال / النبي ﷺ : « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد » (١) ، وقال النبي ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه » (٢) .

١٠ / ٢١٤

وهذا الأصل هو أصل الدين ، وبحسب تحقيقه يكون تحقيق الدين ، وبه أرسل الله الرسل ، وأنزل الكتب ، وإليه دعا الرسول ، وعليه جاهد ، وبه أمر ، وفيه رغب ، وهو قطب الدين الذي تدور عليه رحاه .

(١) البخاري معلقاً في الفتح (٣١٧/١٣) ومسلم في الأفضية (١٨/١٧١٨) عن عائشة .

(٢) البخاري في بدء الوحي (١) ومسلم في الإمارة (١٥٥/١٩٠٧) كلاهما عن عمر .

والشرك غالب على النفوس ، وهو كما جاء في الحديث : « وهو في هذه الأمة أخفى من ديب النمل »^(١) ، وفي حديث آخر: قال أبو بكر: يا رسول الله، كيف ننجو منه وهو أخفى من ديب النمل ؟ فقال النبي ﷺ لأبي بكر: «ألا أعلمك كلمة إذا قلتها نجوت من دقه وجله ؟ قل : اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم ، وأستغفرك لما لا أعلم»^(٢) . وكان عمر يقول في دعائه : اللهم اجعل عملي كله صالحاً ، واجعله لوجهك خالصاً ، ولا تجعل لأحد فيه شيئاً .

وكثيراً ما يخالط النفوس من الشهوات الخفية ما يفسد عليها تحقيق / محبتها لله ١٠/٢١٥ وعبوديتها له ، وإخلاص دينها له، كما قال شداد بن أوس : يا بقايا العرب، إن أخوف ما أخاف عليكم الرياء، والشهوة الخفية. قيل لأبي داود السجستاني : وما الشهوة الخفية؟ قال: حب الرئاسة ، وعن كعب بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال : « ما ذنبان جائعان أرسلا في زريبة غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال ، والشرف لدينه » قال الترمذي : حديث حسن صحيح^(٣) .

فبين ﷺ أن الحرص على المال، والشرف في فساد الدين، لا ينقص عن فساد الذنوب الجائعين لزريبة الغنم، وذلك بين ، فإن الدين السليم لا يكون فيه هذا الحرص، وذلك أن القلب إذا ذاق حلاوة عبوديته لله، ومحبه له لم يكن شيء أحب إليه من ذلك حتى يقدمه عليه، وبذلك يصرف عن أهل الإخلاص لله السوء والفحشاء، كما قال تعالى : ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤] .

فإن المخلص لله ذاق من حلاوة عبوديته لله ما يمنعه عن عبوديته لغيره، ومن حلاوة محبته لله ما يمنعه عن محبة غيره؛ إذ ليس عند القلب لا أحلى، ولا أذى، ولا أطيّب، ولا آلین، ولا أنعم من حلاوة الإيمان المتضمن عبوديته لله، ومحبه له، وإخلاصه الدين له، وذلك يقتضي انجذاب القلب إلى الله فيصير القلب منيباً إلى الله خائفاً منه راغباً راهباً، كما قال تعالى : ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ [ق: ٣٣]، إذ المحب يخاف من

زوال مطلوبه وحصول / مرغوبه ، فلا يكون عبد الله ومحبه إلا بين خوف ورجاء ، قال ١٠/٢١٦ تعالى : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٧] .

(١) أحمد ٤/٣٠٤ وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/٢٢٦ ، ٢٢٧ : « رجال أحمد رجال الصحيح غير أبي علي ووثقه ابن حبان ».

(٢) ذكره الهيثمي في المجمع ١٠ / ٢٢٧ وقال : « رواه أبو يعلى من رواية ليث بن أبي سليم عن أبي محمد عن حذيفة ، وليث : مدلس وأبو محمد إن كان هو الذي روى عن ابن مسعود أو الذي روى عن عثمان بن عفان ، فقد وثقه ابن حبان ، وإن كان غيرهما فلم أعرفه وبقيّة رجاله رجال الصحيح ».

(٣) الترمذي في الزهد (٢٣٧٦) ، والدارمي في الرقاق ٢/٣٠٤ ، وأحمد ٣/٤٥٦ ، ٤٦٠ ، كلهم عن كعب بن مالك عن أبيه .

وإذا كان العبد مخلصاً له اجتباؤه ربه فيحیی قلبه، واجتذبه إليه فينصرف عنه ما يضاد ذلك من السوء والفحشاء، ويخاف من حصول ضد ذلك، بخلاف القلب الذي لم يخلص لله، فإنه في طلب وإرادة وحب مطلق، فيهوئ ما يسنح له ويتشبث بما يهواه، كالغصن أي نسيم مر بعطفه أماله. فتارة تجتذبه الصور المحرمة وغير المحرمة، فيبقى أسيراً عبداً لمن لو اتخذه هو عبداً له، لكان ذلك عيباً ونقصاً وذمماً. وتارة يجتذبه الشرف والرئاسة، فترضيه الكلمة وتغضبه الكلمة ويستعبده من يشئ عليه ولو بالباطل، ويعادي من يذمه ولو بالحق، وتارة يستعبده الدرهم والدينار، وأمثال ذلك من الأمور التي تستعبد القلوب، والقلوب تهواها فيتخذ إلهه هواه ويتبع هواه بغير هدى من الله.

ومن لم يكن خالصاً لله عبداً له قد صار قلبه معبداً لربه وحده لا شريك له، بحيث يكون الله أحب إليه من كل ما سواه، ويكون ذليلاً له خاضعاً وإلا استعبده الكائنات، واستولت على قلبه الشياطين، وكان من الغاوين إخوان الشياطين، وصار فيه من السوء والفحشاء ما لا يعلمه إلا الله، وهذا أمر ضروري لا حيلة فيه، فالقلب إن لم يكن حنيفاً مقبلاً على الله معرضاً عما / سواه وإلا كان مشركاً، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ إلى قوله: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣٠-٣٢].

١٠/٢١٧

وقد جعل الله - سبحانه - إبراهيم وآل إبراهيم أئمة لهؤلاء الحنفاء المخلصين أهل محبة الله وعبادته وإخلاص الدين له، كما جعل فرعون وآل فرعون أئمة المشركين المتبعين أهواءهم. قال تعالى في إبراهيم: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ . وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٢، ٧٣]، وقال في فرعون وقومه: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَنْصُرُونَ . وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ [القصص: ٤١، ٤٢].

ولهذا يصير أتباع فرعون أولاً إلى ألا يميزوا بين ما يحبه الله ويرضاه، وبين ما قدر الله وقضاه، بل ينظرون إلى المشيئة المطلقة الشاملة، ثم في آخر الأمر لا يميزون بين الخالق والمخلوق، بل يجعلون وجود هذا وجود هذا، ويقول محققوهم: الشريعة فيها طاعة ومعصية، والحقيقة فيها معصية بلا طاعة، والتحقيق ليس فيه طاعة ولا معصية، وهذا تحقيق مذهب فرعون وقومه الذين أنكروا الخالق وأنكروا تكليمه لعبده موسى وما أرسله به من الأمر والنهي.

١٠/٢١٨ /وأما إبراهيم، وآل إبراهيم الحنفاء، والأنبياء فهم يعلمون أنه لا بد من الفرق بين الخالق والمخلوق، ولا بد من الفرق بين الطاعة والمعصية. وأن العبد كلما ازداد تحقيقاً ازدادت محبته لله وعبوديته له وطاعته له وإعراضه عن عبادة غيره ومحبة غيره وطاعة غيره. وهؤلاء المشركون الضالون يسوون بين الله وبين خلقه. والخليل يقول: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ . أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ . فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٧٥-٧٧]، ويتمسكون بالمتشابه من كلام المشائخ كما فعلت النصارى.

مثال ذلك اسم الفناء ، فإن الفناء ثلاثة أنواع : نوع للكاملين من الأنبياء والأولياء، ونوع للقاصدين من الأولياء والصالحين، ونوع للمنافقين الملحدين المشبهين.

فأما الأول: فهو الفناء عن إرادة ما سوى الله، بحيث لا يحب إلا الله، ولا يعبد إلا إياه، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يطلب غيره، وهو المعنى الذي يجب أن يقصد بقول الشيخ أبى يزيد حيث قال: أريد ألا أريد إلا ما يريد. أي المراد المحبوب المرضي، وهو المراد بالإرادة الدينية وكمال العبد ألا يريد ولا يحب ولا يرضى إلا ما أَرَادَهُ اللهُ ورضيه وأحبه، وهو ما أمر به أمر إيجاب أو استحباب، ولا يحب إلا ما يحبه الله كالملائكة والأنبياء والصالحين. وهذا معنى قولهم في قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٩] قالوا:

١٠/٢١٩ هو السليم مما سوى الله، أو مما سوى عبادة الله، أو مما سوى / إرادة الله، أو مما سوى محبة الله، فالمعنى واحد وهذا المعنى إن سمي فناء أو لم يسم، هو أول الإسلام وآخره. وباطن الدين وظاهره.

وأما النوع الثاني: فهو الفناء عن شهود السوى ، وهذا يحصل لكثير من السالكين، فإنهم لفرط المجذاب قلوبهم إلى ذكر الله وعبادته ومحبته وضعف قلوبهم عن أن تشهد غير ما تعبد وترى غير ما تقصد، لا يخطر بقلوبهم غير الله، بل ولا يشعرون، كما قيل في قوله: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ [القصص: ١٠]، قالوا: فارغاً من كل شيء إلا من ذكر موسى، وهذا كثير يعرض لمن فقمه أمر من الأمور إما حب وإما خوف. وإما رجاء يبقى قلبه منصرفاً عن كل شيء إلا عما قد أحبه، أو خافه أو طلبه، بحيث يكون عند استغراقه في ذلك لا يشعر بغيره.

فإذا قوى على صاحب الفناء هذا ، فإنه يغيب بموجوده عن وجوده، وبمشهوده عن شهوده ، وبمذكوره عن ذكره، وبمعروفه عن معرفته، حتى يفنى من لم يكن، وهي المخلوقات المعبدة بمن سواه، ويبقى من لم يزل وهو الرب تعالى، والمراد فناؤها في شهود العبد وذكره ، وفناؤه عن أن يدركها أو يشهدها. وإذا قوى هذا ضعف المحب حتى

اضطرب في تميزه فقد يظن أنه هو محبوبه ، كما يذكر: أن رجلاً ألقى نفسه في اليم فألقى محبه نفسه خلفه ، فقال: أنا وقعت فما أوقعك خلفي؟ قال : غبت بك عني ، فظننت أنك أني .

١٠/٢٢٠ /وهذا الموضع زل فيه أقوام، وظنوا أنه اتحاد، وأن المحب يتحد بالمحبيب حتى لا يكون بينهما فرق في نفس وجودهما، وهذا غلط ، فإن الخالق لا يتحد به شيء أصلاً، بل لا يتحد شيء بشيء إلا إذا استحالاً وفسداً وحصل من اتحادهما أمر ثالث لا هو هذا ولا هذا، كما إذا اتحد الماء واللبن، والماء والخمر، ونحو ذلك، ولكن يتحد المراد والمحبيب والمكروه ويتفقان في نوع الإرادة والكراهة، فيحب هذا ما يحب هذا. ويغض هذا ما يغض هذا، ويرضى ما يرضى، ويسخط ما يسخط، ويكره ما يكره، ويوالي من يوالي، ويعادي من يعادي، وهذا الفناء كله فيه نقص.

وأكابر الأولياء، كأبي بكر وعمر، والسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، لم يقعوا في هذا الفناء ، فضلاً عما هو فوقهم من الأنبياء، وإنما وقع شيء من هذا بعد الصحابة . وكذلك كل ما كان من هذا النمط مما فيه غيبة العقل والتميز، لما يرد على القلب من أحوال الإيمان، فإن الصحابة - رضي الله عنهم - كانوا أكمل وأقوى وأثبت في الأحوال الإيمانية من أن تغيب عقولهم. أو يحصل لهم غشى، أو صعق، أو سكر، أو فناء، أو وكه، أو جنون. وإنما كان مبادئ هذه الأمور في التابعين من عباد البصرة، فإنه كان فيهم من يغشى عليه إذا سمع القرآن. ومنهم من يموت: كأبي جهير الضرير. ووزارة بن أوفى قاضي البصرة.

١٠/٢٢١ وكذلك صار في شيوخ الصوفية، من يعرض له من الفناء والسكر، ما / يضعف معه تميزه، حتى يقول في تلك الحال من الأقوال ما إذا صحا عرف أنه غالط فيه، كما يحكى نحو ذلك، عن مثل أبي يزيد، وأبي الحسين^(١) النوري، وأبي بكر الشبلي وأمثالهم.

بخلاف أبي سليمان الداراني ، ومعروف الكرخي ، والفضيل بن عياض، بل وبخلاف الجنيد وأمثالهم ، ممن كانت عقولهم وتميزهم يصحبهم في أحوالهم فلا يفعون في مثل هذا الفناء والسكر ونحوه ، بل الكمل تكون قلوبهم ليس فيها سوى محبة الله وإرادته وعبادته، وعندهم من سعة العلم والتميز ما يشهدون الأمور على ما هي عليه ، بل يشهدون المخلوقات قائمة بأمر الله مدبرة بمشيئته ، بل مستجيبة له قانتة له ، فيكون لهم فيها تبصرة وذكرى ، ويكون ما يشهدونه من ذلك مؤيداً ، ومعدداً لما في قلوبهم من

(١) في المطبوعة : « الحسن » والصواب ما أثبتناه.

إخلاص الدين، وتجريد التوحيد له، والعبادة له وحده لا شريك له.

وهذه الحقيقة، التي دعا إليها القرآن، وقام بها أهل تحقيق الإيمان، والكامل من أهل العرفان. ونبينا ﷺ إمام هؤلاء وأكملهم؛ ولهذا لما عرج به إلى السموات، وعان ما هنالك من الآيات وأوحى إليه ما أوحى من أنواع المناجاة أصبح فيهم وهو لم يتغير حاله، ولا ظهر عليه ذلك، بخلاف ما كان يظهر على موسى من التغشي - صلى الله عليهم وسلم أجمعين.

١٠/٢٢٢ / وأما النوع الثالث :- مما قد يسمى فناء - فهو أن يشهد أن لا موجود إلا الله، وأن وجود الخالق هو وجود المخلوق، فلا فرق بين الرب والعبد، فهذا فناء أهل الضلال والإلحاد الواقعيين في الحلول والاتحاد.

والمشاخ المستقيمون إذا قال أحدهم: ما أرى غير الله، أولا أنظر إلى غير الله، ونحو ذلك، فمراهم بذلك ما أرى ربا غيره، ولا خالقاً غيره، ولا مدبراً غيره، ولا إلها غيره، ولا أنظر إلى غيره محبة له، أو خوفاً منه، أو رجاء له، فإن العين تنظر إلى ما يتعلق به القلب، فمن أحب شيئاً، أو رجاء أو خافه التفت إليه، وإذا لم يكن في القلب محبة له، ولا رجاء له، ولا خوف منه، ولا بغض له، ولا غير ذلك من تعلق القلب له لم يقصد القلب أن يلتفت إليه، ولا أن ينظر إليه ولا أن يراه وإن رآه اتفاقاً، رؤية مجردة كان كما لو رأى حائطاً، ونحوه مما ليس في قلبه تعلق به.

والمشاخ الصالحون - رضي الله عنهم - يذكرون شيئاً من تجريد التوحيد، وتحقيق إخلاص الدين كله، بحيث لا يكون العبد ملتفتاً إلى غير الله ولا ناظراً إلى ما سواه: لاحقاً له، ولا خوفاً منه، ولا رجاء له بل يكون القلب فارغاً من المخلوقات خالياً منها لا ينظر إليها إلا بنور الله، فبالحق يسمع، وبالحق يبصر، وبالحق يبطش، وبالحق يمشي، فيحب منها ما يحبه الله، ويبغض منها ما يبغضه الله، ويوالي منها ما والاه الله، ويعادي منها ما عاداه / الله، ويخاف الله فيها، ولا يخافها في الله، ويرجو الله فيها، ولا يرجوها في الله، فهذا هو القلب السليم، الخفيف، الموحد، المسلم، المؤمن، العارف، المحقق، الموحد بمعرفة الأنبياء والمرسلين، وبحقيقتهم وتوحيدهم.

١٠/٢٢٣ وأما النوع الثالث: وهو الفناء في الموجود، فهو تحقيق آل فرعون، ومعرفتهم وتوحيدهم كالقرامطة وأمثالهم.

وهذا النوع الذي عليه أتباع الأنبياء هو الفناء المحمود، الذي يكون صاحبه به ممن أثنى الله عليهم من أوليائه المتقين، وحزبه المفلحين، وجنده الغالبين.

وليس مراد المشائخ، والصالحين، بهذا القول أن الذي أراه بعيني من المخلوقات، هو رب الأرض والسموات، فإن هذا لا يقوله إلا من هو في غاية الضلال والفساد، إما فساد العقل، وإما فساد الاعتقاد. فهو متردد بين الجنون والإلحاد.

وكل المشائخ الذين يقتدي بهم في الدين متفقون على ما اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها، من أن الخالق - سبحانه - مابين للمخلوقات، وليس في مخلوقاته شيء من ذاته، ولا في ذاته شيء من مخلوقاته، وأنه يجب إفراد القديم عن الحادث، وتمييز الخالق عن المخلوق. وهذا في كلامهم / أكثر من أن يمكن ذكره هنا. وهم قد تكلموا على ما يعرض للقلوب من الأمراض والشبهات، وأن بعض الناس قد يشهد وجود المخلوقات، فيظنه خالق الأرض والسموات، لعدم التمييز والفرقان في قلبه، بمنزلة من رأى شعاع الشمس، فظن أن ذلك هو الشمس التي في السماء.

١٠/٢٢٤

وهم قد يتكلمون في الفرق، والجمع، ويدخل في ذلك من العبارات الملفتة نظير ما دخل في الفناء، فإن العبد إذا شهد التفرقة والكثرة في المخلوقات يبقى قلبه متعلقاً بها، متشتتاً ناظراً إليها متعلقاً بها، إما محبة، وإما خوفاً، وإما رجاء، فإذا انتقل إلى الجمع اجتمع قلبه على توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، فالتفت قلبه إلى الله بعد التفاته إلى المخلوقين فصارت محبته لربه، وخوفه من ربه، ورجاؤه لربه، واستعانت به، وهو في هذا الحال قد لا يسع قلبه النظر إلى المخلوق؛ ليفرق بين الخالق والمخلوق. فقد يكون مجتمعاً على الحق معرضاً عن الخلق نظراً وقصداً وهو نظير النوع الثاني من الفناء.

ولكن بعد ذلك الفرق الثاني وهو : أن يشهد أن المخلوقات قائمة بالله، مدبرة بأمره ويشهد كثرتها معدومة بوحداية الله - سبحانه وتعالى - وأنه - سبحانه - رب المصنوعات، وإلهها وخالقها، ومالكها، فيكون مع اجتماع قلبه على الله - إخلاصاً له ومحبة وخوفاً ورجاء واستعانة وتوكلاً على الله وموالاته فيه، ومعاداة فيه وأمثال ذلك - ناظراً إلى الفرق بين الخالق والمخلوق ممزاً / بين هذا وهذا، يشهد تفرق المخلوقات، وكثرتها مع شهادته أن الله رب كل شيء، ومليكه، وخالقه، وأنه هو الله لا إله إلا هو، وهذا هو الشهود الصحيح المستقيم، وذلك واجب، في علم القلب، وشهادته، وذكره، ومعرفته، في حال القلب، وعبادته، وقصده، وإرادته، ومحبته، وموالاته، وطاعته.

١٠/٢٢٥

وذلك تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله، فإنه ينفي عن قلبه ألوهية ما سوى الحق، ويثبت في قلبه ألوهية الحق، فيكون نافياً لألوهية كل شيء من المخلوقات، مثبتاً لألوهية رب العالمين رب الأرض والسموات، وذلك يتضمن اجتماع القلب على الله، وعلى

مفارقة ما سواه، فيكون مفرقاً في علمه وقصده في شهادته، وإرادته في معرفته ومحبه بين الخالق والمخلوق، بحيث يكون عالماً بالله - تعالى - ذاكراً له عارفاً به، وهو مع ذلك عالم بمبايسته لخلقه، وانفراده عنهم، وتوحده دونهم، ويكون محباً لله، معظماً له، عابداً له، راجياً له خائفاً منه، موالياً فيه، معادياً فيه، مستعيناً به، متوكلاً عليه، ممتنعاً عن عبادة غيره، والتوكل عليه، والاستعانة به، والخوف منه، والرجاء له، والموالة فيه، والمعادة فيه، والطاعة لأمره، وأمثال ذلك، مما هو من خصائص إلهية الله - سبحانه وتعالى.

وإقراره بألوهية الله - تعالى - دون ما سواه يتضمن إقراره بربوبيته، وهو أنه رب كل شيء ومليكه، وخالقه، ومدبره، فحينئذ يكون موحداً لله.

ويبين ذلك أن أفضل الذكر : لا إله إلا الله، كما رواه الترمذي وابن أبي الدنيا، ١٠/٢٢٦ وغيرهما مرفوعاً إلى النبي ﷺ أنه قال: « أفضل الذكر: لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء: الحمد لله » (١)، وفي الموطأ - وغيره - عن طلحة بن عبد الله بن كثير أن النبي ﷺ قال: « أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي : لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير » (٢).

ومن زعم أن هذا ذكر العامة، وأن ذكر الخاصة هو الاسم المفرد، وذكر خاصة الخاصة، هو الاسم المضمّر، فهم ضالون غالطون. واحتجاج بعضهم على ذلك، بقوله: « قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ » [الأنعام: ٩١]، من أين غلط هؤلاء، فإن الاسم هو المذكور في الأمر بجواب الاستفهام. وهو قوله: « قُلِ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَأِطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً وَعِلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ » [الأنعام: ٩١] أي: الله الذي أنزل الكتاب الذي جاء به موسى، فالاسم مبتدأ، وخبره قد دل عليه الاستفهام، كما في نظائر ذلك تقول: من جاره، فيقول زيد.

وأما الاسم المفرد، مظهر، أو مضمراً، فليس بكلام تام، ولا جملة مفيدة، ولا يتعلق به إيمان، ولا كفر، ولا أمر، ولا نهى، ولم يذكر ذلك أحد من سلف الأمة، ولا شرع ذلك رسول الله ﷺ، ولا يعطي القلب بنفسه معرفة مفيدة، ولا حالاً نافعاً، وإنما يعطيه تصوراً مطلقاً، لا يحكم عليه بنفي ولا إثبات، فإن لم يقترب به من معرفة

(١) الترمذي في الدعوات (٣٣٨٣) وقال: « حديث غريب »، والنسائي في الكبرى في عمل اليوم والليلة (١٠٦٦٧)، وابن ماجه في الأدب (٣٨٠٠)، كلهم عن جابر بن عبد الله.

(٢) مالك في الموطأ في القرآن ١/٢١٤ (٣٢) والترمذي في الدعوات (٣٥٨٥) وقال: « حديث غريب من هذا الوجه ».

١٠/٢٢٧ القلب وحاله ما يفيد بنفسه / وإلا لم يكن فيه فائدة. والشرعية إنما تشرع من الأذكار ما يفيد بنفسه، لا ما تكون الفائدة حاصلة بغيره.

وقد وقع بعض من واطب على هذا الذكر في فنون من الإلحاد، وأنواع من الاتحاد، كما قد بسط في غير هذا الموضع.

وما يذكر عن بعض الشيوخ من أنه قال: أخاف أن أموت بين النفي والإثبات. حال لا يقتدى فيها بصاحبها، فإن في ذلك من الغلط ما لا خفاء به. إذ لو مات العبد في هذه الحال لم يمت إلا على ما قصده ونواه، إذ الأعمال بالنيات، وقد ثبت أن النبي ﷺ أمر بتلقين الميت لا إله إلا الله، وقال: «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة»^(١) ولو كان ما ذكره محذوراً لم يلحق الميت كلمة يخاف أن يموت في أثنائها موتاً غير محمود، بل كان يلحق ما اختاره من ذكر الاسم المفرد.

والذكر بالاسم المضمّر المفرد أبعد عن السنة، وأدخل في البدعة وأقرب إلى إضلال الشيطان، فإن من قال: يا هو يا هو، أو: هو هو. ونحو ذلك لم يكن الضمير عائداً إلا إلى ما يصوره قلبه، والقلب قد يهتدي وقد يضل، وقد صنف صاحب «الفصوص» كتاباً سماه كتاب «الهو» وزعم بعضهم أن قوله: «وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ» [آل عمران: ٧]، معناه: وما يعلم تأويل هذا الاسم الذي هو «الهو»، وقيل: هذا وإن كان مما اتفق المسلمون بل / العقلاء على أنه من أبين الباطل، فقد يظن ذلك من يظنه من هؤلاء، حتى قلت مرة لبعض من قال شيئاً من ذلك لو كان هذا كما قلته لكتبت: «وما يعلم تأويل هو» منفصلة.

ثم كثيراً ما يذكر بعض الشيوخ أنه يحتج على قول القائل: «اللَّهُ» بقوله: «قُلِ اللَّهُ تَمَّ ذَرْهُمْ» ويظن أن الله أمر نبيه بأن يقول: الاسم المفرد، وهذا غلط باتفاق أهل العلم، فإن قوله: «قُلِ اللَّهُ» معناه: الله الذي أنزل الكتاب الذي جاء به موسى، وهو جواب لقوله: «قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَارِيسَ تَبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ» [الأنعام: ٩١]، أي: الله الذي أنزل الكتاب الذي جاء به موسى، رد بذلك قول من قال: ما أنزل الله على بشر من شيء، فقال: «مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى» ثم قال: «قُلِ اللَّهُ» أنزله «ثُمَّ ذَرْهُمْ» هؤلاء المكذبين «فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ».

ومما يبين ما تقدم: ما ذكره سيبويه وغيره من أئمة النحو أن العرب يحكون بالقول ما كان كلاماً، لا يحكون به ما كان قولاً، فالقول لا يحكى به إلا كلام تام، أو جملة

(١) البخاري معلقاً في الفتح (١٠٩/٣) وأبو داود في الجنائز (٣١١٦).

اسمية أو فعلية؛ ولهذا يكسرون أن إذا جاءت بعد القول ، فالقول لا يحكى به اسم، والله - تعالى - لا يأمر أحداً بذكر اسم مفرد، ولا شرع للمسلمين اسماً مفرداً مجرداً، والاسم المجرد لا يفيد الإيمان / باتفاق أهل الإسلام، ولا يؤمر به في شيء من العبادات، ولا في شيء من المخاطبات.

ونظير من اقتصر على الاسم المفرد ما يذكر أن بعض الأعراب مر بمؤذن يقول: «أشهد أن محمداً رسول الله» بالنصب فقال: ماذا يقول هذا؟ هذا الاسم فأين الخبر عنه الذي يتم به الكلام؟

وما في القرآن من قوله: ﴿وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتَلًا﴾ [المزمل: ٨]، وقوله: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]، وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى . وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ [الأعلى: ١٤، ١٥]، وقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٩٦]، ونحو ذلك لا يقتضي ذكره مفرداً، بل في السنن أنه لما نزل قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٩٦]، قال: «اجعلوها في ركوعكم» ولما نزل قوله: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ قال: «اجعلوها في سجودكم»^(١). فشرع لهم أن يقولوا في الركوع: سبحان ربي العظيم، وفي السجود سبحان ربي الأعلى ، وفي الصحيح أنه كان يقول في ركوعه: «سبحان ربي العظيم» وفي سجوده: «سبحان ربي الأعلى»^(٢) وهذا هو معنى قوله: «اجعلوها في ركوعكم» و«سجودكم» باتفاق المسلمين.

فتسبيح اسم ربه الأعلى وذكر اسم ربه، ونحو ذلك هو بالكلام التام المفيد، كما في الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «أفضل الكلام بعد القرآن أربع - وهن من القرآن -: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر»^(٣) ، وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»^(٤) ، وفي الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: «من قال في يومه مائة مرة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، كتب الله له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي ، ونم يأت أحد بأفضل مما جاء به ، إلا رجل قال مثل ما قال أو زاد عليه . ومن قال في يومه مائة مرة : سبحان

(١) أبو داود في الصلاة (٨٦٩) وابن ماجه في إقامة الصلاة (٨٨٧) ، وضعفه الألباني .

(٢) أبو داود في الصلاة (٨٧٠) وابن ماجه في إقامة الصلاة (٨٨٨) ، وضعفه الألباني .

(٣) البخاري معلقاً في الفتح (٥٦٦/١١) ومسلم في الأذكار (١٢/٢١٣٧) عن سمرة بن جندب.

(٤) البخاري في الإيمان والنذور (٦٦٨٢) .

اللَّهِ وبحمده سبحانه الله العظيم، حطت عنه خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر»^(١)، وفي الموطأ وغيره عن النبي ﷺ أنه قال: «أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير»^(٢). وفي سنن ابن ماجه وغيره عنه ﷺ أنه قال: «أفضل الذكر لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء الحمد لله»^(٣).

ومثل هذه الأحاديث كثيرة في أنواع ما يقال من الذكر والدعاء.

وكذلك ما في القرآن من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكَّرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١٢١]، وقوله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤]، إنما هو قوله: بسم الله. وهذا جملة تامة إما اسمية، على أظهر / قولي النحاة، أو فعلية، والتقدير ذبحي باسم الله، أو أذبح باسم الله، وكذلك قول القارئ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ فتقديره: قراءتي بسم الله، أو أقرأ بسم الله.

١٠/٢٣١

ومن الناس من يضمّر في مثل هذا ابتدائي بسم الله، أو ابتدأت بسم الله. والأول أحسن؛ لأن الفعل كله مفعول بسم الله، ليس مجرد ابتدائه، كما أظهر المضمّر في قوله: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١]، وفي قوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ [هود: ٤١]، وفي قول النبي ﷺ: «من كان ذبح قبل الصلاة فليذبح مكانها أخرى. ومن لم يكن ذبح فليذبح بسم الله»^(٤). ومن هذا الباب قول النبي ﷺ في الحديث الصحيح لربيّه عمر بن أبي سلمة: «سم الله، وكل بيمينك، وكل مما يليك»^(٥) فالمراد أن يقول بسم الله. ليس المراد أن يذكر الاسم مجرداً. وكذلك قوله في الحديث الصحيح لعدي بن حاتم: «إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله فكل»^(٦)، وكذلك قوله ﷺ: «إذا دخل الرجل منزله فذكر اسم الله عند دخوله، وعند خروجه. وعند طعامه، قال الشيطان لا مبيت لكم ولا عشاء»^(٧) وأمثال ذلك كثير.

(١) البخاري في بدء الخلق (٣٢٩٣)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٨/٢٦٩١)، كلاهما عن أبي هريرة.

(٢، ٣) سبق تخريجهما ص ١٣٣.

(٤) البخاري في الأضاحي (٥٥٦٢)، ومسلم في الأضاحي (١/١٩٦٠)، وابن ماجه في الأضاحي (٣١٥٢)، عن جندب البجلي.

(٥) البخاري في الأطعمة (٥٣٧٦)، ومسلم في الأشربة (٢٠٢٢/ ١٠٨، ١٠٩)، وأبو داود في الأطعمة (٣٧٧٧)، والترمذي في الأطعمة (١٨٥٧)، وابن ماجه في الأطعمة (٣٢٦٧).

(٦) البخاري في الذبائح (٥٤٧٦) ومسلم في الصيد والذبائح (١/١٩٢٩)، (٢).

(٧) مسلم في الأشربة (٢٠١٨/ ١٠٣)، وأبو داود في الأطعمة (٣٧٦٥) وابن ماجه في الدعاء (٣٨٨٧)، وأحمد ٣/ ٣٤٦، كلهم عن جابر.

وكذلك ما شرع للمسلمين في صلاتهم وأذانهم ، وحجهم وأعيادهم من ذكر الله تعالى إنما هو بالجملة التامة . كقول المؤذن : الله أكبر ، الله / أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، وقول المصلي : الله أكبر ، سبحان ربي العظيم ، سبحان ربي الأعلى ، سمع الله لمن حمده ، ربنا ولك الحمد ، التحيات لله ، وقول المربي : ليك اللهم ليك ، وأمثال ذلك ، فجميع ما شرعه الله من الذكر إنما هو كلام تام ، لا اسم مفرد لا مظهر ولا مضمّر ، وهذا هو الذي يسمى في اللغة كلمة ، كقوله : «كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن ، سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم»^(١) ، وقوله : «أفضل كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد : ألا كل شيء ما خلا الله باطل»^(٢) ، ومنه قوله تعالى : ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ الآية [الكهف : ٥] ، وقوله : ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام : ١١٥] ، وأمثال ذلك مما استعمل فيه لفظ الكلمة في الكتاب والسنة ، بل وسائر كلام العرب فإنما يراد به الجملة التامة ، كما كانوا يستعملون الحرف في الاسم ، فيقولون : هذا حرف غريب . أي : لفظ الاسم غريب .

وقسم سيويه الكلام إلى اسم ، وفعل ، وحرف جاء لمعنى ، ليس باسم وفعل ، وكل من هذه الأقسام يسمى حرفاً ، لكن خاصة الثالث أنه حرف جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل ، وسمى حروف الهجاء باسم الحرف وهي أسماء ، ولفظ الحرف يتناول هذه الأسماء وغيرها ، كما قال النبي ﷺ : «من قرأ القرآن فأعربه فله بكل حرف / عشر حسنات : أما أني لا أقول : ﴿الْم﴾ حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف»^(٣) ، وقد سأل الخليل أصحابه عن النطق بحرف الزاي من زيد فقالوا : زاي ، فقال : جئتم بالاسم ، وإنما الحرف «ز» .

ثم إن النحاة اصطلاحوا على أن هذا المسمى في اللغة بالحرف يسمى كلمة ، وأن لفظ الحرف يخص لما جاء لمعنى ، ليس باسم ولا فعل ، كحروف الجر ونحوها ، وأما ألفاظ حروف الهجاء فيعبر تارة بالحرف عن نفس الحرف من اللفظ ، وتارة باسم ذلك الحرف ، ولما غلب هذا الاصطلاح صار يتوهم من اعتاده أنه هكذا في لغة العرب ، ومنهم من يجعل لفظ الكلمة في اللغة لفظاً مشتركاً بين الاسم مثلاً وبين الجملة ، ولا يعرف في صريح اللغة من لفظ الكلمة إلا الجملة التامة .

(١) سبق تخريجه ص ١٣٥ .

(٢) البخاري في الأدب (٦١٤٧) ومسلم في الشعر (٢/٢٢٥٦ ، ٣) .

(٣) الترمذي في فضائل القرآن (٢٩١٠) وقال : «حسن صحيح غريب من هذا الوجه» والدارمي في فضائل القرآن ٤٣١/٢ بلفظ قريب من هذا .

والمقصود هنا أن المشروع في ذكر الله - سبحانه - هو ذكره بجملة تامة وهو المسمى بالكلام، والواحد منه بالكلمة، وهو الذي ينفع القلوب، ويحصل به الثواب والأجر، والقرب إلى الله ومعرفته ومحبه وخشيته، وغير ذلك من المطالب العالية والمقاصد السامية، وأما الاختصار على الاسم المفرد مظهراً أو مضمراً فلا أصل له. فضلاً عن أن يكون من ذكر الخاصة والعارفين، بل هو وسيلة إلى أنواع من البدع والضلالات وذريعة إلى تصورات أحوال فاسدة من أحوال أهل الإلحاد، وأهل الاتحاد، كما قد بسط الكلام عليه في غير هذا الموضع.

١٠/٢٣٤

/وجماع الدين أصلاً: ألا نعبد إلا الله، ولا نعبد إلا بما شرع، لا نعبد بالبدع، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]، وذلك تحقيق الشهادتين: شهادة أن لا إله إلا الله، وشهادة أن محمداً رسول الله. ففي الأولى: ألا نعبد إلا إياه، وفي الثانية: أن محمداً هو رسوله المبلغ عنه، فعلينا أن نصدق خبره ونطيع أمره، وقد بين لنا ما نعبد الله به، ونهانا عن محدثات الأمور، وأخبر أنها ضلالة، قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١٢].

كما أنا مأمورون ألا نخاف إلا الله ولا نتوكل إلا على الله، ولا نرغب إلا إلى الله، ولا نستعين إلا بالله، وألا تكون عبادتنا إلا لله، فكذلك نحن مأمورون أن نتبع الرسول ونطيعه ونتأسي به، فالحلال ما حلله والحرام ما حرمه، والدين ما شرعه، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ [التوبة: ٥٩]، فجعل الإيتاء لله والرسول، كما قال: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]، وجعل التوكل على الله وحده بقوله: ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ ولم يقل ورسوله، كما قال في الآية الأخرى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، ومثله قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤]، أي: / حسبك وحسب المؤمنين كما قال: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦].

١٠/٢٣٥

ثم قال: ﴿سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ﴾، فجعل الإيتاء لله والرسول، وقدم ذكر الفضل، لأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم، وله الفضل على رسوله وعلى المؤمنين، وقال: ﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ فجعل الرغبة إلى الله وحده كما في قوله: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ . وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [الشرح: ٧، ٨]، وقال النبي ﷺ لابن

عباس: «إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله»^(١). والقرآن يدل على مثل هذا في غير موضع.

فجعل العبادة والخشية والتقوى لله، وجعل الطاعة والمحبة لله ورسوله، كما في قول نوح - عليه السلام -: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا أَمْرًا﴾ [نوح: ٣]، وقوله: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور: ٥٢]، وأمثال ذلك.

فالرسل أمروا بعبادته وحده والرغبة إليه والتوكل عليه، والطاعة لهم، فأضل الشيطان النصارى، وأشباههم فأشركوا بالله، وعصوا الرسول، اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم، فجعلوا يرغبون إليهم ويتوكلون عليهم ويسألونهم، مع معصيتهم لأمرهم ومخالفتهم لستهم، وهدى الله المؤمنين المخلصين لله أهل الصراط المستقيم، الذين عرفوا الحق واتبعوه، / فلم يكونوا من المغضوب عليهم ولا الضالين، ١٠/٢٣٦ فأخلصوا دينهم لله، وأسلموا وجوههم لله، وأنابوا إلى ربهم، وأحبوه ورجوه وخافوه، وسألوه ورغبوا إليه وفوضوا أمورهم إليه وتوكلوا عليه، وأطاعوا رسله وعزروهم ووقروهم وأحبوهم ووالوهم واتبعوهم، واقتفوا آثارهم واهتدوا بمنارهم.

وذلك هو دين الإسلام الذي بعث الله به الأولين والآخرين من الرسل، وهو الدين الذي لا يقبل الله من أحد ديناً إلا إياه، وهو حقيقة العبادة لرب العالمين.

فنسأل الله العظيم أن يثبتنا عليه، ويكمله لنا ويميتنا عليه وسائر إخواننا المسلمين.

والحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

(١) سبق تخريجه ص ١١٠ .

/ سئل شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - عن قول النبي ﷺ : « دعوة أخي ذي النون : ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٧] . ما دعا بها مكروب إلا فرج الله كربته » (١) ما معنى هذه الدعوة؟ ولم كانت كاشفة للكرب؟ وهل لها شروط باطنة عند النطق بلفظها؟ وكيف مطابقة اعتقاد القلب لمعناها. حتى يوجب كشف ضره؟ وما مناسبة ذكره : ﴿ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ ، مع أن التوحيد يوجب كشف الضر؟ وهل يكفيه اعترافه، أم لابد من التوبة والعزم في المستقبل؟ وما هو السر في أن كشف الضر وزواله يكون عند انقطاع الرجاء عن الخلق والتعلق بهم؟ وما الحيلة في انصراف القلب عن الرجاء للمخلوقين، والتعلق بهم بالكلية، وتعلقه بالله - تعالى - ورجائه وانصرافه إليه بالكلية، وما السبب المعين على ذلك؟

فأجاب :

الحمد لله رب العالمين، لفظ الدعاء والدعوة في القرآن يتناول معنيين: دعاء العبادة،

/ ودعاء المسألة . ١٠ / ٢٣٨

قال الله تعالى : ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المؤمنون : ١١٧] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [القصص : ٨٨] ، وقال : ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ [الجن : ١٩] ، وقال : ﴿ إِن يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا ﴾ [النساء : ١١٧] ، وقال تعالى : ﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ شَيْءٌ إِلَّا كِبَاسٌ كَفِّهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ ﴾ [الرعد : ١٤] ، وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ﴾ [الفرقان : ٦٨] ، وقال في آخر السورة : ﴿ قُلْ مَا يَعْبادُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ﴾ [الفرقان : ٧٧] .

قيل : لولا دعائكم إياه، وقيل : لولا دعاؤه إياكم . فإن المصدر يضاف إلى الفاعل تارة، وإلى المفعول تارة، ولكن إضافته إلى الفاعل أقوى ؛ لأنه لابد له من فاعل ؛ فلهذا

(١) الترمذي في الدعوات (٣٥٠٥)، والنسائي في الكبرى في عمل اليوم والليلة (١٠٤٩١، ١٠٤٩٢)، والحاكم ٥٠٥/١ وسكت عنه هو والذهبي.

كان هذا أقوى القولين أي: ما يعبأ بكم لولا أنكم تدعونه فتعبدونه، وتسالونه: ﴿فَقَدْ كَذَبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ [الفرقان: ٧٧] أي: عذاب لازم للمكذبين.

ولفظ الصلاة في اللغة: أصله الدعاء، وسميت الصلاة دعاء لتضمنها معنى الدعاء، وهو العبادة والمسألة.

/ وقد فسر قوله تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، بالوجهين، قيل: اعبدوني وامثلوا أمري أستجب لكم. كما قال تعالى: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الشورى: ٢٦] أي: يستجيب لهم، وهو معروف في اللغة، يقال: استجاب واستجاب له، كما قال الشاعر:

وداع دعا يا من يجيب إلى الندى فلم يستجبه عند ذاك مجيب
وقيل: سلوني أعطكم.

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له»^(١) فذكر أولاً لفظ الدعاء، ثم ذكر السؤال والاستغفار. والمستغفر سائل كما أن السائل داع، لكن ذكر السائل؛ لدفع الشر بعد السائل الطالب للخير، وذكرهما جميعاً بعد ذكر الداعي الذي يتناولهما وغيرهما، فهو من باب عطف الخاص على العام.
قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

١٠/٢٤٠. وكل سائل راغب راهب، فهو عابد للمسؤول، وكل عابد له / فهو أيضاً راغب وراهب، يرجو رحمته ويخاف عذابه، فكل عابد سائل، وكل سائل عابد. فأحد الاسمين يتناول الآخر عند تجرده عنه، ولكن إذا جمع بينهما: فإنه يراد بالسائل الذي يطلب جلب المنفعة ودفع المضرة بصيغ السؤال والطلب، ويراد بالعابد من يطلب ذلك بامتثال الأمر، وإن لم يكن في ذلك صيغ سؤال.

والعابد الذي يريد وجه الله، والنظر إليه هو - أيضاً - راج خائف راغب راهب: يرغب في حصول مراده، ويهرب من فواته، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠]، وقال تعالى: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ

(١) البخاري في التهجد (١١٤٥) ومسلم في صلاة المسافرين (١٦٨/٧٥٨) كلاهما عن أبي هريرة.

الْمُصَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴿[السجدة : ١٦]﴾ ، ولا يتصور أن يخلو داع لله - دعاء عبادة أو دعاء مسألة - من الرغب والرهب ، من الخوف والطمع .

وما يذكر عن بعض الشيوخ أنه جعل الخوف والرجاء من مقامات العامة ، فهذا قد يفسر مراده بأن المقربين يريدون وجه الله ، فيقصدون التلذذ بالنظر إليه ، وإن لم يكن هناك مخلوق يتلذذون به ، وهؤلاء يرجون حصول هذا المطلوب ، ويخافون حرمانه ، فلم يخلوا عن الخوف والرجاء ، لكن مرجوهم ومخوفهم بحسب مطلوبهم .

ومن قال من هؤلاء : لم أعبدك شوقاً إلى جنتك ولا خوفاً من نارك ، / فهو يظن أن الجنة اسم لما يتمتع فيه بالمخلوقات ، والنار اسم لما لا عذاب فيه إلا ألم المخلوقات ، وهذا قصور وتقصير منهم عن فهم مسمى الجنة ، بل كل ما أعده الله لأوليائه ، فهو من الجنة والنظر إليه هو من الجنة ؛ ولهذا كان أفضل الخلق يسأل الله الجنة ، ويستعيز به من النار ، ولما سأل بعض أصحابه عما يقول في صلاته قال : إني أسأل الله الجنة ، وأعوذ بالله من النار ، أما إني لا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ ، فقال : «حولها ندندن»^(١) .

وقد أنكر على من قال هذا الكلام - يعني : أسألك لذة النظر إلى وجهك - فريق من أهل الكلام ، ظنوا أن الله لا يتلذذ بالنظر إليه ، وأنه لا نعيم إلا بمخلوق . فغلط هؤلاء في معنى الجنة كما غلط أولئك ، لكن أولئك طلبوا ما يستحق أن يطلب ، وهؤلاء أنكروا ذلك .

وأما التألم بالنار ، فهو أمر ضروري ، ومن قال : لو أدخلني النار لكنت راضياً ، فهو عزم منه على الرضا . والعزائم قد تنفسخ عند وجود الحقائق ، ومثل هذا يقع في كلام طائفة مثل سمنون^(٢) الذي قال :

وليس لي في سواك حظ فكيف ما شئت فامتحنني

فابتلى بعسر البول فجعل يطوف على صبيان المكاتب ويقول : ادعوا لعمكم الكذاب ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾ [آل عمران : ١٤٣] .

/ وبعض من تكلم في علل المقامات ، جعل الحب والرضا والخوف والرجاء ، من ١٠ / ٢٤٢

(١) أبو داود في الصلاة (٧٩٢ ، ٧٩٣) ، وابن ماجه في إقامة الصلاة (٩١٠) وفي الزوائد : «إسناده صحيح ، ورجاله ثقات» ، وأحمد ٤٧٤ / ٣ .

(٢) هو أبو الحسن سمنون بن حمزة الخواص ، صوفي ناسك من الشعراء ، سكن بغداد ، ومات قبل الجنيـد سنة ٢٩٨ هـ [حلية الأولياء ، ٣٠٩ / ١٠ ، تاريخ بغداد ٩ / ٢٣٤] .

مقامات العامة بناء على مشاهدة القدر، وأن من شهد القدر فشهد توحيد الأفعال حتى فنى من لم يكن، وبقي من لم يزل، يخرج عن هذه الأمور، وهذا كلام مستدرك حقيقة وشرعاً.

أما الحقيقة، فإن الحي لا يتصور ألا يكون حساساً محبباً لما يلائمه، مبغضاً لما ينافره، ومن قال إن الحي يستوى عنده جميع المقدورات، فهو أحد رجلين، إما أنه لا يتصور ما يقول بل هو جاهل، وإما أنه مكابر معاند، ولو قدر أن الإنسان حصل له حال أزال عقله - سواء سمي اصطلاحاً، أو محواً، أو فناءً، أو غشياً، أو ضعفاً - فهذا لم يسقط إحساس نفسه بالكلية، بل له إحساس بما يلائمه وما ينافره، وإن سقط إحساسه ببعض الأشياء، فإنه لم يسقط بجمعها.

فمن زعم أن المشاهد لتوحيد الربوبية يدخل إلى مقام الجمع، والفناء، فلا يشهد فرقاً فإنه غلط، بل لا بد من الفرق، فإنه أمر ضروري.

لكن إذا خرج عن الفرق الشرعي بقى في الفرق الطبيعي، فيبقى متبعاً لهواه لا مطيعاً لمولاه.

/ولهذا لما وقعت هذه المسألة، بين الجنيد وأصحابه ذكر لهم الفرق الثاني، وهو: أن ١٠/٢٤٣ يفرق بين المأمور والمحظور، وبين ما يحبه الله وما يكرهه، مع شهوده للقدر الجامع، فيشهد الفرق في القدر الجامع. ومن لم يفرق بين المأمور والمحظور، خرج عن دين الإسلام.

وهؤلاء الذين يتكلمون في الجمع لا يخرجون عن الفرق الشرعي بالكلية، وإن خرجوا عنه كانوا كفاراً من شر الكفار، وهم الذين يخرجون إلى التسوية بين الرسل وغيرهم، ثم يخرجون إلى القول بوحدة الوجود، فلا يفرقون بين الخالق والمخلوق، ولكن ليس كل هؤلاء ينتهون إلى هذا الإلحاد، بل يفرقون من وجه دون وجه فيطيعون الله ورسوله تارة، ويعصون الله ورسوله تارة، كالعصاة من أهل القبلة. وهذه الأمور مبسطة في غير هذا الموضع.

والمقصود هنا أن لفظ الدعوة والدعاء، يتناول هذا وهذا، قال الله - تعالى -: ﴿وَأَخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠]، وفي الحديث: «أفضل الذكر لا إله إلا الله»، وأفضل الدعاء الحمد لله « رواه ابن ماجه وابن أبي الدنيا^(١). وقال النبي ﷺ في الحديث الذي رواه الترمذي وغيره: «دعوة أخي ذي النون: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ

(١) ابن ماجه في الأدب (٣٨٠٠) وابن أبي الدنيا في الشكر (١٠٢) كلاهما عن جابر.

إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾، ما دعا بها مكروب إلا فرج الله كربته»^(١)، سماها دعوة ، لأنها تتضمن نوعي الدعاء . فقوله لا إله إلا أنت اعتراف بتوحيد الإلهية . / وتوحيد الإلهية يتضمن أحد نوعي الدعاء، فإن الإله هو المستحق؛ لأن يدعي دعاء عبادة، ودعاء مسألة، وهو الله لا إله إلا هو.

وقوله : ﴿إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ اعتراف بالذنب ، وهو يتضمن طلب المغفرة ، فإن الطالب السائل تارة يسأل بصيغة الطلب، وتارة يسأل بصيغة الخبر، إما بوصف حاله، وإما بوصف حال المسؤول، وإما بوصف الحاليين . كقول نوح - عليه السلام : ﴿رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧]، فهذا ليس بصيغة طلب ، وإنما هو إخبار عن الله أنه إن لم يغفر له ويرحمه خسر.

ولكن هذا الخبر يتضمن سؤال المغفرة، وكذلك قول آدم - عليه السلام : ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، هو من هذا الباب، ومن ذلك قول موسى - عليه السلام : ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤]، فإن هذا وصف لحاله بأنه فقير إلى ما أنزل الله إليه من الخير، وهو متضمن لسؤال الله إنزال الخير إليه.

وقد روى الترمذي، وغيره عن النبي ﷺ أنه قال : «من شغله قراءة القرآن عن ذكرى ومسألتي، أعطيته أفضل ما أعطي السائلين» رواه الترمذي، وقال: حديث حسن^(٢) ، ورواه مالك بن الحويرث / وقال: «من شغله ذكرى عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين»، وأظن البيهقي رواه مرفوعاً بهذا اللفظ^(٣).

وقد سئل سفيان بن عيينة عن قوله: «أفضل الدعاء يوم عرفة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير»^(٤) فذكر هذا الحديث وأنشد قول أمية بن أبي الصلت يمدح ابن جُدعان:

أأذكر حاجتي أم قد كفاني حباؤك أن شيمتك الحباء
إذا أتنى عليك المرء يوماً كفاه من تعرضه الثناء

(١) سبق تخريجه ص ١٤٠ .

(٢) الترمذي في فضائل القرآن (٢٩٢٦)، ولفظ الترمذي: «من شغله القرآن وذكرى عن مسألتي» وهو عن أبي سعيد ، وضعفه الألباني .

(٣) البيهقي في الشعب (٥٧٤)، ط: الكتب العلمية.

(٤) الترمذي في الدعوات (٣٥٨٥) وقال: «غريب من هذا الوجه»، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٠٧٢).

قال : فهذا مخلوق يخاطب مخلوقاً ، فكيف بالخالق تعالى .

ومن هذا الباب الدعاء المأثور عن موسى - عليه السلام - : «اللهم لك الحمد، وإليك المشتكى، وأنت المستعان، وبك المستغاث، وعليك التكلان»^(١) فهذا خبر يتضمن السؤال .

ومن هذا الباب قول أيوب عليه السلام : «أَنِّي مَسْنِي الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ» [الأنبياء: ٨٣] ، فوصف نفسه ، ووصف ربه بوصف يتضمن سؤال رحمته بكشف ضره ، وهي صيغة خبر تضمنت السؤال . وهذا من باب حسن الأدب في السؤال والدعاء ، فقول القائل لمن يعظمه ، ويرغب إليه : أنا جائع ، أنا / مريض ، حسن أدب في السؤال . وإن ١٠ / ٢٤٦ كان في قوله : أطعمني ، وداوني ، ونحو ذلك ، مما هو بصيغة الطلب ، طلب جازم من المسؤول ، فذاك فيه إظهار حاله وإخباره على وجه الذل والافتقار المتضمن لسؤال الحال ، وهذا فيه الرغبة التامة والسؤال المحض بصيغة الطلب .

وهذه الصيغة - صيغة الطلب والاستدعاء - إذا كانت لمن يحتاج إليه الطالب ، أو ممن يقدر على قهر المطلوب منه ونحو ذلك ، فإنها تقال على وجه الأمر : إما لما في ذلك من حاجة الطالب ، وإما لما فيه من نفع المطلوب ، فأما إذا كانت من الفقير من كل وجه للغني من كل وجه ، فإنها سؤال محض بتذلل ، وافتقار ، وإظهار الحال .

ووصف الحاجة والافتقار هو سؤال بالحال ، وهو أبلغ من جهة العلم والبيان .

وذلك أظهر من جهة القصد والإرادة ؛ فلهذا كان غالب الدعاء من القسم الثاني ، لأن الطالب السائل يتصور مقصوده ومراده ، فيطلبه ويسأله ، فهو سؤال بالمطابقة والقصد الأول . وتصريح به باللفظ ، وإن لم يكن فيه وصف لحال السائل والمسؤول ، فإن تضمن وصف حالهما كان أكمل من النوعين ، فإنه يتضمن الخبر والعلم المقتضى للسؤال والإجابة ، ويتضمن القصد والطلب الذي هو نفس السؤال ، فيتضمن السؤال والمقتضى له والإجابة / كقول النبي ﷺ لأبي بكر الصديق - رضي الله تعالى عنه - لما قال له علمني دعاء أدعو به في صلاتي ، فقال : « قل : اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ، ولا يغفر الذنوب إلا أنت ، فاغفر لي مغفرة من عندك ، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم » . أخرجاه في الصحيحين^(٢) .

فهذا فيه وصف العبد لحال نفسه المقتضى حاجته إلى المغفرة ، وفيه وصف ربه الذي

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠ / ١٨٦ وقال : «رواه الطبراني في الأوسط والصغير وفيه من لم أعرفهم» . .

(٢) البخاري في الأذان (٨٣٤) ، ومسلم في الذكر والدعاء (٤٨ / ٢٧٠٥) .

يوجب، أنه لا يقدر على هذا المطلوب غيره ، وفيه التصريح بسؤال العبد لمطلوبه ، وفيه بيان المقتضى للإجابة، وهو وصف الرب بالمغفرة، والرحمة، فهذا ونحوه أكمل أنواع الطلب . وكثير من الأدعية يتضمن بعض ذلك، كقول موسى - عليه السلام -: ﴿ أَنْتَ وَلِيْنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٥٥] ، فهذا طلب ووصف للمولى بما يقتضي الإجابة . وقوله: ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي ﴾ [القصص: ١٦] ، فيه وصف حال النفس والطلب ، وقوله: ﴿ إِنِّي لَمَّا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ [القصص: ٢٤] ، فيه الوصف المتضمن للسؤال بالحال ، فهذه أنواع لكل نوع منها خاصة .

يبقى أن يقال: فصاحب الحوت ومن أشبهه لماذا ناسب حالهم صيغة الوصف والخبر دون صيغة الطلب؟

/ فيقال: لأن المقام مقام اعتراف، بأن ما أصابني من الشر كان بذنبي، فأصل الشر هو الذنب، والمقصود دفع الضر، والاستغفار جاء بالقصد الثاني، فلم يذكر صيغة طلب كشف الضر لاستشعاره أنه مسيء ظالم، وهو الذي أدخل الضر على نفسه، فناسب حاله أن يذكر ما يرفع سببه من الاعتراف بظلمه، ولم يذكر صيغة طلب المغفرة؛ لأنه مقصود للعبد المكروب بالقصد الثاني، بخلاف كشف الكرب، فإنه مقصود له في حال وجوده بالقصد الأول، إذ النفس بطبعها تطلب ما هي محتاجة إليه من زوال الضرر الحاصل من الحال قبل طلبها، زوال ما تخاف وجوده من الضرر في المستقبل بالقصد الثاني، والمقصود الأول في هذا المقام هو المغفرة وطلب كشف الضر، فهذا مقدم في قصده وإرادته، وأبلغ ما ينال به رفع سببه، فجاء بما يحصل مقصوده .

وهذا يتبين بالكلام على قوله: ﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ فإن هذا اللفظ يتضمن تعظيم الرب وتنزيهه، والمقام يقتضى تنزيهه عن الظلم والعقوبة بغير ذنب، يقول: أنت مقدس ومنزه عن ظلمي وعقوبتي بغير ذنب ؛ بل أنا الظالم الذي ظلمت نفسي، قال تعالى: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [النحل: ١١٨] ، وقال تعالى: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ [هود: ١٠١] ، وقال: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴾ [الزخرف: ٧٦] ، وقال آدم - عليه السلام - : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا ﴾ [الأعراف: ٢٣] .

/ وكذلك قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح الذي في مسلم في دعاء الاستفتاح: «اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت ، أنت ربي وأنا عبدك ، ظلمت نفسي واعترفت بذنبي، فاغفر لي ذنوبي جميعاً ، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت» (١)، وفي صحيح البخاري:

(١) مسلم في صلاة المسافرين (٢٠١/٧٧١) عن علي بن أبي طالب .

«سيد الاستغفار أن يقول العبد : اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، من قالها إذا أصبح موقناً بها فمات من يومه دخل الجنة، ومن قالها إذا أمسى موقناً بها فمات من ليلته دخل الجنة» (١).

فالعبد عليه أن يعترف بعُدل الله وإحسانه، فإنه لا يظلم الناس شيئاً، فلا يعاقب أحداً إلا بذنبه، وهو يحسن إليهم، فكل نعمة منه عدل، وكل نعمة منه فضل.

فقوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ﴾ فيه إثبات انفراده بالإلهية، والإلهية تتضمن كمال علمه وقدرته ورحمته وحكمته، ففيها إثبات إحسانه إلى العباد، فإن الإله هو المألوه، والمألوه هو الذي يستحق أن يعبد، وكونه يستحق أن يعبد هو بما اتصف به من الصفات التي تستلزم أن يكون هو المحبوب غاية الحب، المخضوع له غاية الخضوع، والعبادة تتضمن غاية الحب بغاية الذل.

١٠/٢٥٠ / وقوله: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ يتضمن تعظيمه وتزويه عن الظلم، وغيره من النقائص، فإن التسبيح، وإن كان يقال: يتضمن نفي النقائص، وقد روى في حديث مرسل من مراسيل موسى بن طلحة عن النبي ﷺ في قول العبد: سبحان الله: «إنها براءة الله من سوء» (٢). فالنفي لا يكون مدحاً إلا إذا تضمن ثبوتاً، وإلا فالنفي المحض لا مدح فيه، ونفي سوء والنقص عنه يستلزم إثبات محاسنه وكماله، ولله الأسماء الحسنى.

وهكذا عامة ما يأتي به القرآن في نفي سوء والنقص عنه يتضمن إثبات محاسنه وكماله، كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. فنفي أخذ السنة والنوم له يتضمن كمال حياته وقيوميته، وقوله: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨]، يتضمن كمال قدرته، ونحو ذلك. فالتسبيح المتضمن تزويه عن سوء، ونفي النقص عنه يتضمن تعظيمه. ففي قوله: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ تبرئته من الظلم، وإثبات العظمة الموجبة له براءته من الظلم، فإن الظالم إنما يظلم؛ لحاجته إلى الظلم أو لجهله، والله غني عن كل شيء، عليم بكل شيء، وهو غني بنفسه، وكل ما سواه فقير إليه، وهذا كمال العظمة.

(١) البخاري في الدعوات (٦٣٢٣) عن شداد بن أوس.

(٢) أورد الهيثمي في المجمع ٩٢/١٠ حديثاً قريباً منه بلفظ: «تزيه له من كل سوء...»، وقال: «رواه الطبراني في الأوسط وفيه أبو شيبه إبراهيم بن عثمان وهو ضعيف» وهو عن أبي هريرة وليس عن موسى بن طلحة.

وأيضاً - ففي هذا الدعاء التهليل ، والتسبيح ، فقلوه : ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ﴾ تهليل . وقوله : ﴿سُبْحَانَكَ﴾ تسبيح . وقد ثبت في الصحيح عن / النبي ﷺ أنه قال : « أفضل الكلام بعد القرآن أربع ، وهن من القرآن ، سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر » (١) .

والتحميد مقرون بالتسبيح وتابع له ، والتكبير مقرون بالتهليل وتابع له ، وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه سئل ، أي الكلام أفضل ؟ قال : « ما اصطفى الله لملائكته : سبحان الله وبحمده » (٢) ، وفي الصحيحين عن النبي ﷺ ، أنه قال : « كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم » (٣) ، وفي القرآن ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [الحجر : ٩٨] ، وقالت الملائكة : ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ [البقرة : ٣٠] .

وهاتان الكلمتان إحداهما مقرونة بالتحميد ، والأخرى بالتعظيم ، فإننا قد ذكرنا أن التسبيح فيه نفي السوء والنقائص ، المتضمن إثبات المحاسن والكمال ، والحمد إنما يكون على المحاسن ، وقرن بين الحمد والتعظيم ، كما قرن بين الجلال والإكرام ؛ إذ ليس كل معظم محبوباً محموداً ، ولا كل محبوب محموداً معظماً ، وقد تقدم أن العبادة تتضمن كمال الحب المتضمن معنى الحمد ، وتتضمن كمال الذل المتضمن معنى التعظيم ، ففي العبادة حبه وحمده على المحاسن ، وفيها الذل له الناشئ عن عظمته وكبريائه . ففيها إجلاله وإكرامه . وهو - سبحانه - المستحق للجلال والإكرام ، فهو مستحق غاية الإجلال وغاية الإكرام .

/ ومن الناس من يحسب أن « الجلال » هو الصفات السلبية ، و« الإكرام » الصفات الثبوتية ، كما ذكر ذلك الرازي ونحوه . والتحقيق أن كليهما صفات ثبوتية ، وإثبات الكمال يستلزم نفي النقائص ، لكن ذكر نوعي الثبوت وهو ما يستحق أن يحب وما يستحق أن يعظم ، كقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [لقمان : ٢٦] ، وقول سليمان - عليه السلام - : ﴿فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل : ٤٠] ، وكذلك قوله : ﴿لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ﴾ [التغابن : ١] ، فإن كثيراً ممن يكون له الملك والغنى لا يكون محموداً بل مذموماً ، إذ الحمد يتضمن الإخبار عن المحمود بحاسنه المحبوبة ، فيتضمن إخباراً بمحاسن المحبوب محبة له .

(١) سبق تخريجه ص ١٣٥ .

(٢) مسلم في الذكر والدعاء (٨٤/٢٧٣١) ، والترمذي في الدعوات (٣٥٩٣) ، كلاهما عن أبي ذر .

(٣) سبق تخريجه ص ١٣٥ .

وكثير ممن له نصيب من الحمد والمحبة يكون فيه عجز وضعف وذل ينافي العظمة والغنى والملك. فالأول يهاب ويخاف ولا يحب، وهذا يحب ويحمد، ولا يهاب ولا يخاف، والكمال اجتماع الوصفين، كما ورد في الأثر: «إن المؤمن رزق حلاوة ومهابة» وفي نعت النبي ﷺ: كان من رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبه^(١).

فقرن التسبيح بالتحميد، وقرن التهليل بالتكبير، كما في كلمات الأذان. ثم إن كل واحد من النوعين يتضمن الآخر إذا أفرد، فإن التسبيح والتحميد يتضمن التعظيم، ويتضمن إثبات ما يحمد عليه وذلك يستلزم الإلهية، فإن الإلهية تتضمن كونه محبوباً، بل تتضمن أنه لا يستحق كمال الحب إلا هو. والحمد هو الإخبار عن المحمود بالصفات التي يستحق أن يحب، فالإلهية / تتضمن كمال الحمد؛ ولهذا كان الحمد لله مفتاح الخطاب، وكل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بالحمد لله فهو أجذم، وسبحان الله فيها إثبات عظمته كما قدمناه؛ ولهذا قال: «فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ» [الواقعة: ٩٦]، وقد قال النبي ﷺ: «اجعلوها في ركوعكم» رواه أهل السنن^(٢)، وقال: «أما الركوع فعظموها فيه الرب، وأما السجود فاجتهدوا فيه بالدعاء، فقم أن يستجاب لكم» رواه مسلم^(٣). فجعل التعظيم في الركوع أخص منه بالسجود والتسبيح يتضمن التعظيم.

ففي قوله: «سبحان الله وبحمده» إثبات تنزيهه وتعظيمه وإلهيته وحمده. وأما قوله: «لا إله إلا الله والله أكبر» ففي لا إله إلا الله إثبات محامده فإنها كلها داخلة في إثبات إلهيته، وفي قوله: «الله أكبر» إثبات عظمته، فإن الكبرياء تتضمن العظمة، ولكن الكبرياء أكمل.

ولهذا جاءت الألفاظ المشروعة في الصلاة والأذان بقول: «الله أكبر»، فإن ذلك أكمل من قول: الله أعظم، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «يقول الله تعالى: الكبرياء ردائي والعظمة إزاري، فمن نازعني واحداً منهما عذبت»^(٤)، فجعل العظمة كالإزار، والكبرياء كالرداء، ومعلوم أن الرداء أشرف، فلما كان التكبير أبلغ من التعظيم صرح بلفظه، وتضمن ذلك التعظيم، وفي قوله: سبحان الله، صرح فيها

(١) الترمذي في المناقب (٣٦٣٨)، وقال: «حديث حسن غريب، ليس إسناده بمتصل» عن علي بن أبي طالب.

(٢) سبق تخريجه ص ١٣٥.

(٣) مسلم في الصلاة (٢٠٧/٤٧٩) عن ابن عباس.

(٤) مسلم في البر والصلة (١٣٦/٢١٢٠).

١٠/٢٥٤ بالتزويه من السوء المتضمن للتعظيم، فصار كل من الكلمتين / متضمناً معنى الكلمتين الآخرين إذا أفردتا، وعند الاقتران تعطى كل كلمة خاصيتها.

وهذا كما أن كل اسم من أسماء الله، فإنه يستلزم معنى الآخر، فإنه يدل على الذات، والذات تستلزم معنى الاسم الآخر، لكن هذا باللزوم، وأما دلالة كل اسم على خاصيته وعلى الذات بمجموعهما فبالمطابقة، ودلالاتها على أحدهما بالتضمن.

فقول الداعي: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] يتضمن معنى الكلمات الأربع اللاتني من أفضل الكلام بعد القرآن. وهذه الكلمات تتضمن معاني أسماء الله الحسنى، وصفاته العليا، ففيها كمال المدح.

وقوله: ﴿إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فيه اعتراف بحقيقة حاله، وليس لأحد من العباد أن يبرئ نفسه عن هذا الوصف، لا سيما في مقام مناجاته لربه. وقد ثبت في الصحاح عن النبي ﷺ أنه قال: «لا ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى»^(١). وقال: «من قال: أنا خير من يونس بن متى فقد كذب»^(٢) فمن ظن أنه خير من يونس، بحيث يعلم أنه ليس عليه أن يعترف بظلم نفسه فهو كاذب؛ ولهذا كان سادات الخلائق، لا يفضلون أنفسهم على يونس في هذا المقام، بل يقولون: كما قال أبوه آدم وخاتمهم محمد ﷺ.

/ فَصْل /

١٠/٢٥٥

وأما قول السائل: لم كانت موجهة لكشف الضر؟ فذلك لأن الضر لا يكشفه إلا الله. كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس: ١٠٧]، والذنوب سبب للضر، والاستغفار يزيل أسبابه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣]، فأخبر أنه سبحانه لا يعذب مستغفراً. وفي الحديث: «من أكثر الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسب»^(٣)، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

فقوله: ﴿إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ اعتراف بالذنوب وهو استغفار، فإن هذا الاعتراف متضمن طلب المغفرة.

(١) البخاري في الأنبياء (٣٣٩٥) ومسلم في الفضائل (١٦٦/٢٣٧٦).

(٢) البخاري في التفسير (٤٦٠٤) والترمذي في التفسير (٣٢٤٥) وقال: «حسن صحيح».

(٣) أحمد ٢٤٨/١ وابن ماجه في الأدب (٣٨١٩)، وضعفه الألباني.